

النبوة

عناصر الموضوع

٣٠٦	مفهوم النبوة
٣٠٧	النبوة في الاستعمال القرآني:
٣٠٨	الألفاظ ذات الصلة
٣١٠	وجوب الإيمان بالأنبياء
٣٢٦	شروط النبوة
٣٤٤	مهمات النبوة
٣٥٦	سنة الله في النبوة

مفهوم النبوة

أولاً: المعنى اللغوي:

الأصل في كلمة النبوة أنها مأخوذة من مادة (نبا)، والنون والباء والهمزة قياسه الإتيان من مكان إلى مكان، يقال للذي ينبا من أرض إلى أرض نابع؛ لأنه يأتي من مكان إلى مكان، والفعل نبأته، وأنبأته، واستنبأته، والنبى: الذي يأتي بالأنباء عن الله عز وجل^(١)، فأخباره هي ما أمره الله أن يخبرنا بها؛ فهي تأتينا من فوق العرش. والجمع: الأنبياء، والنبيون.

وقيل: إنها مشتقة من النبوة والنباوة، وهي الارتفاع، أي: إنه أشرف على سائر الخلق، وأنه مفضل على سائر الناس برفع منزلته^(٢)، والنبىء: الطريق الواضح^(٣).

وقيل: من النبأ: الخبر، والنبىء: المخبر، ومنه قراءة نافع: (النبئين) و(الأنبياء) و(النبيثون)^(٤)، ومفردا النبىء على وزن فعيل بمعنى فاعل للمبالغة؛ لأنه أنبا عن الله تعالى، أي: أخبر، ويجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه، والاسم منها النبوءة، التي هي الإخبار عن الله جل جلاله^(٥).

وهذه المعاني الثلاثة تجتمع في النبي، يقول الإمام الخطابي رحمه الله: «وإنما سمي الأنبياء؛ لأنهم قد ارتفعت منزلتهم، واستعلت درجاتهم على سائر الخلق، والنبي: الطريق، وسمي رسل الله أنبياء لأنهم الطرق إلى الله»^(٦).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

النبي في الاصطلاح: «من أوحى إليه وحياً خاصاً من الله بتكليم الله جل جلاله له، أو بتوسط ملك، أو بإلهام في قلبه، أو بالرؤيا الصالحة، وقد ختمت النبوة، وانقطع الوحي بخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم»^(٧).

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣٨٢ / ٨.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣٨٥ / ٥، لسان العرب، ابن منظور ١٦٣ / ١.

(٣) انظر: لسان العرب ١٦٤ / ١.

(٤) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس ص ٨٥٣، معاني القراءات، الأزهرى ١٥٣ / ١.

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣ / ٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٥٣، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ٣٤٥.

(٦) غريب الحديث، الخطابي ١٩٣ / ٣.

(٧) معجم لغة الفقهاء ص ٤٧٤.

النبوة في الاستعمال القرآني:

وردت مادة (نبا) في القرآن الكريم (١٦٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (٨٠) مرة^(١).

والصيغ التي وردت، هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]	٥	المصدر
﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]	٧٥	الأسماء

وجاءت النبوة في القرآن بمعنى: السفارة بين الله والخلق؛ لإزاحة عليلهم في أمر معادهم ومعاشهم، وهي إما من الفعل (نبا)، وهو: ما ارتفع من الأرض؛ لأن النبوة شرف على سائر الخلق، فهو على هذا المعنى فعيل بمعنى مفعول. أو من الفعل (نبا) و (نبا) و (أنبا) بالهمز، من الإخبار؛ لأنه مُنْبَأٌ ومُخْبِرٌ من الله، فهو على هذا المعنى فعيل بمعنى مفعول أيضاً، أو لأنه منبئٌ ومخبر عن الله، فهو على هذا المعنى فعيل بمعنى فاعل^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٨٥-٦٨٧، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب النون ص ١٣٠٣-١٣٠٦.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/١٣٤-١٣٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/١٤-١٥، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٧٨٨-٧٨٩، مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٠٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الوحي:

الوحي لغة:

إلقاء علم من طرف لآخر في خفاء^(١).

الوحي اصطلاحًا:

المعنى الموثق إلى من أريد به في خفاء، لتنفيذه بحسب ما يقتضيه المعنى.

الفرق بين النبوة والوحي:

النبوة هي درجة يكرم الله بها من شاء من عباده، ولا تكون إلا بالوحي بمعناه الأخص، وهي أن يرسل الله للنبي بالرسول الملكي، وهو جبريل عليه السلام، وقد ختمت النبوة بمبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إلا ما يكون من مبعث عيسى عليه السلام في آخر الزمان، أما الوحي فقد بقيت صورة من صورته وهي الرؤيا الصالحة.

٢ الرسالة:

الرسالة لغة:

العبارات المؤلفة، والمعاني المدونة، المبعوثة من شخص لآخر بواسطة ناقل^(٢).

الرسالة اصطلاحًا:

هي الشريعة التي يبعث الله بها من شاء من عباده إلى قومه أو الناس كافة، وهي متضمنة لأحكام يكلف الله بها عباده، وأخبار وجب عليهم تصديقها.

الفرق بين النبوة والرسالة:

النبوة هي وحي من الله تبارك وتعالى لعبده من عباده في أمة كان الله قد بعث فيها رسولاً بشريعة، وبعث هذا النبي لتجديد هذه الشريعة، أما الرسالة فهي وحي من الله جل جلاله لعبده من عباده بشرع جديد، يتضمن أحكاماً مغايرة لمن سبقه من الرسل، وهذه الأحكام في باب الأوامر والنواهي، وليس في باب العقائد والأخبار، وبذلك تكون الرسالة رتبة أعلى من النبوة؛ فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦ / ٩٣.

(٢) الكلبيات، الكفوي ص ٤٧٦.

الصديقية لغة:

التصديق بكل أمر أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه، لا يتخالج قلب الصديق شكٌ في شيء منه.

الصديقية اصطلاحًا:

وصف يطلق على من يأتي بعد الأنبياء في قوة الإيمان، وحسن الطاعة^(١).

الفرق بين النبوة والصديقية:

النبوة هي أعلى درجات الكمال البشري، ويأتي بعدها في الرتبة درجة الصديقية؛ وهي درجة من أعلى درجات الولاية، وأدنى درجات النبوة^(٢)، ولا واسطة بينها وبين النبوة، فمن جاوزها وقع في النبوة بفضل الله تعالى في الزمان الأول، وذلك أن الصديق يؤمن بما جاء به الرسول دون أن يطلب على ذلك برهان؛ بل يقبله بما أكرمه الله به من صحيح الفطرة وسلامتها من الانحراف، فيصدقه ويناصره، فيكون الواسطة في الأخبار بين الله وبين النبي الوحي، بينما الصديق واسطته في ذلك النبي، ويطلق على الصديق أيضًا الحواري.

الولاية لغة:

النصرة والمحبة^(٣).

الولاية اصطلاحًا:

درجة وكرامة من الله جل جلاله ينالها العبد بسبب إيمانه بالله، وتقربه له، وطاعته إياه.

الفرق بين النبوة والولاية:

الولاية صفة عامة لكل من آمن بالله وأطاعه واتقاه، وهي درجات أعلاها النبوة، ويأتي بعد النبوة في الرتبة الصديقية كما سبق بيانه، ولكن بينها جميعًا عموم وخصوص، وعلى ذلك تكون كالإسلام مع الإيمان؛ إذا اجتمعت اختلفت، وإذا افرقت اتفقت، وتكون الولاية بذلك رتبة ثالثة بعد الصديقية^(٤).

(١) انظر: الكليات ص ٥٥٧.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي ص ٤٩٦.

(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٥٧.

﴿تَحْمَدُ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهؤلاء الأنبياء والمرسلون المذكورون بأسمائهم في كتاب الله «علينا أن نؤمن بهم تفصيلاً كما أخبرنا الله عنهم.

وأما من عدا هؤلاء من الرسل والأنبياء فنؤمن بهم إجمالاً على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالتهم، دون أن نكلف أنفسنا البحث عن عدتهم وأسمائهم، فإن ذلك مما اختص الله بعلمه؛ قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] (١).

ثانياً: من اختلف في نبوتهم:

الأنبياء السالف ذكرهم أثبت الله عز وجل لهم النبوة في كتابه، وهناك من اختلف العلماء في نبوتهم، هل هم من الأنبياء أم من الصالحين؟ ومنهم:

١. الخضر.

اختلف العلماء في الخضر هل هو نبي، أم ولي، أم ملك؟

قال القرطبي رحمه الله: «الخضر نبي عند الجمهور. وقيل: هو عبد صالح غير نبي. وقيل: كان ملكاً أمر الله موسى أن يأخذ عنه» (٢).

ومردّد اختلاف العلماء إلى دلالات

الآيات المذكورة في حديث موسى مع الخضر في سورة الكهف، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي نَزَّيْتَهُ رَحْمَةً مِنِّي وَعِلْمًا مِّن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقوله تعالى في شأنه: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

وقوله تعالى حكاية عن الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ مِنْ أَمْرٍ﴾ [الكهف: ٨٢].

والراجح قول الجمهور: أنه كان نبياً، والدليل عليه ما يلي:

أولاً: أن الآيات في سورة الكهف تشهد بنبوته؛ لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحي من الله.

ثانياً: أن موسى عليه السلام تبعه ليتعلم منه، والإنسان لا يتعلم ولا يتبع إلا من فوقه، وليس ولا يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي.

ثالثاً: يفهم من قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَزَّيْتَهُ رَحْمَةً مِنِّي وَعِلْمًا مِّن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

أن هذه الرحمة المذكورة هنا رحمة نبوة، وأن هذا العلم اللدني علم وحي (٣).

٢. ذو القرنين.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/١٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/٥٢٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/١٨٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/٣٢٢.

(١) شرح العقيدة الواسطية، محمد خليل هراس ١/٦٣-٦٤ بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/١٦.

اختلف العلماء في ذي القرنين: منهم من قال: كان عبدًا صالحًا. ومنهم من قال: كان نبياً. ومنهم من قال: كان ملكًا من الملائكة. قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ مُعَذِّبٌ وَإِنَّمَا أَنْتَ نَحْنُ فِيهِمْ حَسْبًا﴾ [الكهف: ٨٦].

«يستدل بهذا من يزعم أنه كان نبياً، فإن الله خاطبه بالوحي، ومن قال: إنه لم يكن نبياً أوله بالإلهام، ويحتمل أن يكون الخطاب على لسان نبي غيره»^(١).

وفي هذه الآية اختلف العلماء: هل هذا الخطاب كان خطاباً من الله له أم كان بواسطة نبي معه؟

فمن قال: كان خطاباً من الله له أثبت له النبوة، ومن قال: كان بواسطة نبي معه نفى عنه النبوة.

٣. تبع.

ورد ذكر تبع في القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿أَهْمَ حَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْتُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّسِ وَنُوحٌ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبِعَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ [ق: ١٢-١٤].

فهل كان نبياً مرسلًا إلى قومه فكذبوه

فأهلكهم الله؟ الله أعلم بذلك^(٢).

٤. الأسباط.

فالأسباط: جمع سبط؛ قيل: إنهم أولاد يعقوب، ومنهم يوسف. وقيل: هم الأنبياء الذين بعثوا في أسباط بني إسرائيل الذين لم يذكروا بأسمائهم، وقيل غير ذلك.

قال ابن حجر: «اختلف في نبوتهم، فقيل: كانوا أنبياء. وقيل: لم يكن فيهم نبي، وإنما المراد بالأسباط قبائل من بني إسرائيل، فقد كان فيهم من الأنبياء عدد كثير»^(٣).

وممن صرح بنفي نبوتهم القاضي عياض حيث قال: «وأما قصة يوسف وإخوته فليس على يوسف منها تعقب، وأما إخوته فلم تثبت نبوتهم، فيلزم الكلام على أفعالهم، وذكر الأسباط وعدهم في القرآن عند ذكر الأنبياء قال المفسرون: «يريد من نبيء من أبناء الأسباط»^(٤).

وقد قال تعالى في شأنهم: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١٤٠].

ثالثاً: عدد الأنبياء والمرسلين وحكم

(٢) العقيدة في ضوء الكتاب والسنة، الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ٢١-٢٢.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٦ / ٤١٩.

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢ / ٣٧٣.

(١) فتح البيان، القنوجي ٨ / ١٠٩.

موسى، هارون، زكريا، يحيى، إدريس، يونس، هود، شعيب، صالح، لوط، إلياس، اليسع، ذو الكفل، عيسى، محمد - صلوات الله عليهم أجمعين-^(١).

فهؤلاء هم المذكورون في القرآن الكريم بأسمائهم.

وهناك أنبياء ومرسلون لا نعرف أسماءهم، ولم يقص الله علينا من أخبارهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

فليس في القرآن حصر لعدد الأنبياء والمرسلين، لكن الواضح من القرآن أنهم كانوا أعدادًا كبيرة، يدلنا على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقوله جل جلاله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَمَّا مُنذِرُونَهَا﴾ [الشعراء: ٢٠٨].

حيث تبين هاتان الآيتان أن كل الأمم وكل القرى التي أخذها الله تعالى كان لها منذرون من قبل الله جل جلاله، وهذا إن دل فإنما يدل على أن عدد الأنبياء والمرسلين كان غفيرًا.

من فرق بينهم:

اقتضت حكمة الله تعالى ألا يعذب أمة إلا بعد إرسال الرسول لها مبلغًا ومنذرًا.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وهذا يدلنا على كثرة الأنبياء والمرسلين إلى الأمم، فكل أمة لها رسول من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

والله تعالى قال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَاللَّيثِيَّ مِنْ بَدْيِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٣٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ وَكَانَ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٤].

١. عدد الأنبياء.

«عدد الأنبياء لا يحصى؛ إذ يزيد عددهم على ما جاء في بعض الآثار مائة وعشرين ألفًا، أما الرسل فهم قلة، والذين ذكروا في القرآن الكريم يجب الإيمان بهم تفصيلًا، وهم خمسة وعشرون، وهم من الرسل، وهم كالاتي:

آدم، نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب، يوسف،

(١) النبوّة والأنبياء، للصابوني ١٣-١٤.

ويؤيد هذا بعض الآثار التي جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ففي المعجم الكبير أن أبا ذر رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قلت: يا نبي الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: (مائة ألف) وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًا غفيراً^(١).

وأياً ما كان الأمر فإننا نقول: إن الواجب على المسلم - كما مر معنا - أن يؤمن إجمالاً بكل الأنبياء والمرسلين دون أن يفرق بين أحد منهم، وأن يؤمن تفصيلاً بمن ذكر الله منهم، ونص عليهم بأسمائهم في كتابه الكريم.

٢. حكم من فرق بينهم.

دين الله واحد وإن اختلفت أحكام الشرائع، وأنبياء الله إخوة، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد)^(٢).

فالواجب علينا أن نؤمن بجميع الأنبياء؛ لأن جميعهم جاء بالإيمان بالله، ولا نفرق بين أحد منهم، فلا نؤمن ببعض، ونكفر

ببعض. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

فهذه الآيات تدلنا على أن «من كفر بنبي واحد فقد كفر بالأنبياء كلهم، ولم ينفعه إيمانه به»^(٣).

«وأن الكفر برسول الله هو كفر بالله»^(٤). وما ذلك إلا لأن الإيمان بالله «يقضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله، وصدق كل الرسل الذين يعيظهم الله، ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم، وتتضمنه الكتب التي نزلت عليهم، ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم»^(٥).

وقد أكد الله كفرهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١].

فتعريف جزأي الجملة، والإتيان بضمير الفصل يفيد «قصر صفة الكفر عليهم»^(٦). وهذا يظهر شدة كفرهم؛ لثلاث «يتوهم أن

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ٢١٧/٨.

وصححه الألباني في مشكاة المصابيح ١٥٩٩/٣، رقم ٥٧٣٧.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (واذكر في الكتاب مريم)، ١٦٧/٤، رقم ٣٤٤٣.

(٣) إغاثة اللهفان، ابن القيم ٣٤٨/٢.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، المخطيب ٩٥٧/٣.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣٤٢/١.

(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/٦.

رابعاً: التفاضل بين الأنبياء:

لله تعالى أن يصطفي من يشاء من عباده، والرسل عليهم أفضل الصلاة وأتم السلام هم ممن اصطفاهم الله لحمل الرسالة، وإبلاغ الهداية إلى الناس، فجعلهم سفراءه إلى خلقه بالرحمة والهدى، وهؤلاء الرسل - على علو مقامهم وشريف منزلتهم - درجات عند الله في الفضل، بعضهم أفضل من بعض.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

وكذا قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْ كَلِمِ اللَّهِ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ففي هذه الآية يخبر المولى جل جلاله أنه «فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيحائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة، والأفعال السديدة، والنفع العام»^(٤).

خامساً: أولو العزم من الرسل هم أفضل الرسل:

إذا كان الرب جل وعلا فضل بعض

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٩.

مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر»^(١).

ومما يؤكد كفر من فرق بين الرسل قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا بُرْهَانٌ وَإِسْتِجَابٌ وَإِذْخِرْ وَيَقُوبَ وَالْأَسْبَابِ وَمَا أَوْقَى مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أَوْقَى النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فها هنا تبين الآية أن المؤمنين ديدينهم هو عدم التفريق بين الرسل أبداً، وبالتالي فهي تقطع بأن «من آمن برسول من رسل الله ولم يؤمن بجميع الرسل فليس من المؤمنين، ومن تمسك بكتاب وكفر بما سواه من كتب الله فهو من الكافرين»^(٢).

وكذا جاء نفس الأمر في قوله: ﴿إِنَّمَا آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وهكذا يظهر لنا أن من فرق بين رسل الله عز وجل فآمن ببعضهم، وكفر بالبعض الآخر فهو كافر قطعاً «وهذا لا يمنع المفاضلة بينهم؛ إذ المقصود عدم التفرقة بين الأنبياء في الإيمان ببعضهم»^(٣). أو إذا كان ذلك على سبيل العصبية والاستنفاص.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢١٢.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١/١٤٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/٧٣٩ بتصرف.

الرسول على بعض، فإن أفضل الرسل هم أولو العزم.

قال تعالى لنبئهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ف«أولو العزم من المرسلين سادات الخلق أولو العزائم والهمم العالية الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لأثارهم، والاهتداء بمنارهم»^(١).

وقد اختلف العلماء في تعداد أولي العزم على أقوال «وأشهرها، أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد صلى الله عليه وسلم»^(٢).

وقد ذكرهم الله في كتابه في أكثر من موضع، فقال جل جلاله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ وَعِيسَىٰ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقْبُوا الَّذِينَ وَلَا تُلْفِرُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال أيضًا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وتخصيص الخمسة المذكورين في الآية مع اندراجهم مع النبيين «للإيدان بمزيد مزيتهم وفضلهم، وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع، وأساطين أولي العزم من

الرسول»^(٣).

أسباب التفضيل:

أسباب التفضيل بين الرسل وأسرار تفاوت الرتب بينهم لا يعلمها إلا الله عز وجل «غير أنها ترجع إلى ما جرى على أيديهم من الخيرات المصلحة للبشر، ومن نصر الحق، وما لقوه من الأذى في سبيل ذلك، وما أيدوا به من الشرائع العظيمة المتفاوتة في هدى البشر، وفي عموم ذلك الهدى ودوامه»^(٤).

كذلك يتعلق التفضيل «بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما من به عليهم من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، وكثرة الأتباع، ونزول الكتب على بعضهم المشتملة على الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية»^(٥).

وقد ذكر الله في كتابه مزايا كثيرة لبعض الأنبياء فيها إظهار لمزيد فضلهم، وعظيم شرفهم، وفيما يلي عرض لهذه المزايا:

١. آدم عليه السلام.

هو أبو البشرية، وقد ذكر القرآن له عددًا

من الخصائص:

✽ أن الله خلقه بيديه وسواه ونفخ فيه من روحه.

وهذه من الفضائل العظيمة التي خصَّ

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٩٢.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٣.

(٥) تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٠.

(١) تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٠٥.

بالعلم يدل على أنه محاط منه برعاية ضافية، ثم إن العلم الذي يحصل عن طريق النظر والفكر قد يعتريه الخلل، ويحوم حوله الخطأ، فيقع صاحبه في الإفساد من حيث إنه يريد الإصلاح، بخلاف العلم الذي يتلقاه الإنسان من تعليم الله، فإنه علم مطابق للواقع قطعاً، ولا يخشى من صاحبه أن يحيد عن سبيل الإصلاح^(٢).

✽ سجود الملائكة له.

وهذا من المواقف العظيمة التي ذكرها القرآن في غير ما موضع والتي تشي بعظيم فضل آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنِ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وفي حديث الشفاعة الطويل: (فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك)^(٣).

فأمر الملائكة بالسجود لآدم -لاشك- يدل على مدى رفعة هذا النبي وعلو مقامه، وفي هذا «كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم عليه السلام»^(٤).

بها سيدنا آدم عليه السلام، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّن حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

وهنا يخبر المولى جل جلاله عن خلقه المباشر لسيدنا آدم عليه السلام، وهذه خصيصة عظيمة لآدم حيث خلقه الله بيديه مباشرة، فلم يكن له أب ولا أم، وفي هذا «إيماء إلى شرف آدم عليه السلام، وعظم مكانته»^(١).

✽ تعليم الله له.

وهذه من الخصائص العالية القدر التي ذكرت لآدم عليه السلام، فهي تدل على عظيم رعاية الرب له، وشريف عنايته به.

قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

ففي هذه الآيات يظهر المولى جل وعلا فضل آدم عليه السلام من جهة أن علمه مستمد من تعليم الله له، فإن إمداد الله له

(١) تفسير المراغي ١٤/٢١.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه)، ٤/١٣٤، رقم ٣٣٤٠.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي ١/٢٨٩.

٢. نوح عليه عليه السلام.

هو من الرسل الكرام، بل هو من أولي العزم الذين فضلهم الله على بقية الأنبياء والرسل، وقد ورد ذكره في القرآن كثيرًا، ومن المزايا التي ذكرها القرآن له أنه:

❖ أول الرسل إلى أهل الأرض.

وهذا من المزايا الرفيعة التي اختص بها سيدنا نوح.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فإنه بدأ بذكر نوح عليه السلام «لأن نوحًا أول رسول أرسله الله إلى الناس»^(١).

وفي حديث الشفاعة يأتي بعض الخلق (فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض)^(٢).

فالرسل موكب كريم شريف القدر عالي المقام، وأن يكون نوح عليه السلام هو مفتتح هذا الركب الميمون، فهذا تشريف كبير له.

٣. إبراهيم عليه السلام.

إبراهيم عليه السلام من الأنبياء الكبار أصحاب الفضل العظيم، والمقام الرفيع، وقد حفل القرآن بكثير من مزاياه وخصائصه، وفيما يلي عرض لأبرزها:

❖ النبي الإمام.

وهذه مرتبة رفيعة، ومزية جليلة اختص بها سيدنا إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا تَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وها هنا يخبر الرب الجليل أنه ابتلى نبيه إبراهيم «ببعض الأوامر والنواهي، فأداها خير الأداء، وأتى بها على وجه الكمال»^(٣).

فجعله الله إمامًا للناس «يتخذونه قدوة، ويقودهم إلى الله، ويقدمهم إلى الخير، ويكونون له تبعًا، وتكون له فيهم قيادة»^(٤).

وبذلك يحصل له الثناء الدائم، والتعظيم المستمر، والأجر الذي لا ينقطع.

❖ النبي الخليل.

وهذه من الدرجات الرفيعة، ومن المزايا الجليلة التي ذكرها القرآن لإبراهيم.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

[١٢٥].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥١/٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه)، ٤/١٣٥، رقم ٣٣٤٠.

(٣) تفسير المراغي ٢٠٩/١.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١١٢/١.

فهذه الآية تبين كيف أن شرف النبوة قد انحصر في سلالة إبراهيم عليه السلام « فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم »^(٥). وأن تكون مواد الهداية والخير «والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون، فهذا من أعظم المناقب والمفاخر التي أكرم الله بها هذا النبي عليه الصلاة والسلام»^(٦).

٤. موسى عليه السلام.

هو من الأنبياء الذين توسع القرآن في ذكر خبرهم، وما كان من شأنهم مع أقوامهم، ومن مزاياه التي أشار إليها القرآن:

✽ تكليم الله له.

وهذه من المزايا العظيمة التي أكرم الله بها موسى عليه السلام، وقد ذكرها القرآن في أكثر من موضع.

قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

فتكليم الله لموسى «تشریف لموسى عليه السلام بهذه الصفة؛ ولهذا يقال له: الكليم»^(٧).

وهذه خصيصة انفرد بها موسى عليه

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٠.

(٦) المصدر السابق بتصرف.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٧٣.

فالخلة «تتضمن كمال المحبة ونهايتها، بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما»^(١). ولشريف هذا المنصب فإنه لم يختص به إلا إبراهيم ومحمد -صلوات الله وسلامه عليهما-، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً)^(٢).

ومنزلة الخلة هذه تُظهِرُ -ولا شك- ما لإبراهيم عند الله من مكانة، فهي «منزلة عليا من منازل القرب من الله، لا تكاد تدانيها منزلة»^(٣).

✽ جعل النبوة والكتاب في ذريته.

النبوة شرف ما بعده شرف، فالأنبياء والرسل هم منارات الهدى للبشر، وأدلاء الناس على طريق خالقهم، فأن يكونوا في ذرية إبراهيم ف«هذه خلعة سنية عظيمة»^(٤). تدل على علو قدره.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

(١) الداء والدواء، ابن القيم ص ١٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد، على القبور، ١/ ٣٧٧، رقم ٥٣٢.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٩١٢/٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٧٥.

السلام دون غيره من الأنبياء والرسل وهي -حتماً- تدل على مدى عظمة هذا النبي، وعلو قدره عند ربه؛ إذ «وقف في أكرم موقف يلقاه إنسان»^(١).

٥. عيسى عليه السلام.

احتفى القرآن بذكر عيسى عليه السلام، وعدد له الكثير من المزايا والخصائص، وفيما يلي عرض لها:

✽ رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم.

الأنبياء جميعاً -عدا آدم عليه السلام - لهم آباء وأمهات، ولكن سيدنا عيسى اختص بميلاد عجيب، حيث إن ميلاده جعله الله آية، فقد ولد بغير أب.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

فقد سمي بكلمة الله «لأنه كان بالكلمة من الله؛ لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته، وعجائب مخلوقاته»^(٢). وهذه ميزة عظيمة لعيسى عليه السلام.

ومن الآيات التي ذكرت هذا أيضاً قوله

تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

وها هنا يؤكد القرآن على كون عيسى خلقاً مغايراً لما تجري عليه الأسباب؛ فقد كان بكلمة الله التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

أي: «أوصلها إليها، وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: بتخليقه وتكوينه كسائر الأرواح المخلوقة»^(٣).

✽ الكلام في المهد.

وهذه من الخصائص التي أكرم الله بها نبيه عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الْقَلِيلِ حِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

أي: إن عيسى عليه السلام سيدعو إلى عبادة الله وحده «في حال صغره، معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحى الله إليه بذلك»^(٤).

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

(لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ...)^(٥)

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٤٧٨/٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٣/٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٦٩٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣١.

الحديث.

أحد^(٢).

وثبت في الصحيح عنه أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدجال^(٣). ومن فارقت روحه جسده لم ينزل جسده من السماء، وإذا أحيي فإنه يقوم من قبره.

وأما قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنِي مَرْيَمُ مَا كُنَّ تِلْكَ إِذْ يَنْزِلُ فِي الْحَبْلِ وَإِنِّي لَأَشهدُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].

فهذا دليل على أنه لم يعن بذلك الموت؛ إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين؛ فإن الله يقبض أرواحهم، ويعرج بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: ﴿وَمَطَّهْرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولو كان قد فارقت روحه جسده لكان بدنه في الأرض كبदन سائر الأنبياء.

وقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقْنُنَّ لِذَلِكَ الْقَوْلِ أَنَّهُمْ إِنَّا إِنَّمَا كَلَّمْنَا بَشَرًا مِثْلُكُمْ وَإِنَّا إِنَّمَا كَلَّمْنَا بَشَرًا مِثْلُكُمْ وَإِنَّا إِنَّمَا كَلَّمْنَا بَشَرًا مِثْلُكُمْ وَإِنَّا إِنَّمَا كَلَّمْنَا بَشَرًا مِثْلُكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٥].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، ٨٢/٣، رقم ٢٢٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم، ١/١٣٥، رقم ١٥٥.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفتن، وأشراف الساعة، باب الدجال وصفته، ٤/٢٢٥٠، رقم ٢٩٣٧.

وخص تكليمه في حال كونه في المهد وحال كونه كهلاً مع أنه يتكلم فيما بينهما «لأن لدينك الحاليين مزيد اختصاص بتشريف الله إياه، فأما تكليمه الناس في المهد؛ فلأنه خارق عادة إرهاباً لنبوءته، وأما تكليمهم كهلاً فمراد به دعوته الناس إلى الشريعة»^(١).

☀ رفعه إلى السماء ونزوله في آخر الزمان. وهذه من المزايا التي تفرد بها هذا النبي الكريم، قال جل جلاله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنِي مَرْيَمُ مَا كُنَّ تِلْكَ إِذْ يَنْزِلُ فِي الْحَبْلِ وَإِنِّي لَأَشهدُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثَمَرًا إِنَّ مَرْجِعَكُمْ فَأَحْكُمُكُمْ بِبَيْنِكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ذهب جمهور أهل السنة والجماعة إلى أن عيسى عليه السلام رفع بجسده وروحه. قال ابن تيمية: «عيسى عليه السلام حي، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (والذي نفسي بيده، ليوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً، وإماماً مقسطاً، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله

الأنبياء، باب قوله: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم)، ٤/١٦٥، رقم ٣٤٣٦.
(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/٢٤٧.

إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

فقوله هنا: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ يبين أنه رفع بدنه وروحه، كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه؛ إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات^(١).

٦. محمد صلى الله عليه وسلم.

نبينا محمد صلى الله عليه وسلم له الكثير من الفضائل والمزايا التي ذكرها الله في كتابه، وفيما يلي عرض لها: ﴿خاتم النبيين﴾.

وهذه من الفضائل العظيمة التي كانت من نصيب محمد صلى الله عليه وسلم، فالنبوة سلسلة رفيعة القدر، فإن يكون هو خاتمها وحلقها الأخيرة فهذا يدل على عظيم قدره.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فكونه النبي الخاتم يدل على أنه صلى الله عليه وسلم «وارث النبيين جميعاً، والمهيمن برسائته على رسالات الرسل كلهم، فلا رسول بعده إلى يوم الدين؛ لقد ختمت به رسالات السماء، وأضيفت شعاعاتها كلها إلى شمس شريعته، فأصبحت تلك الشعاعات مضموناً من مضامينها، وقبساً من

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ٣٢٢-٣٢٣.

أقباسها، فلا هدى بعد هذا إلا من هداها، ولا نوراً إلا من نورها ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ عِبْرَةَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] (٢) (٣).

﴿ أرسل للناس عامة.﴾

وهذه من المناقب العظيمة التي أكرم الله بها نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، فرسالته هي «الرسالة الأخيرة، فهي الرسالة الشاملة التي لا تختص بقوم ولا أرض ولا جيل، ولقد كانت الرسالات قبلها رسالات محلية قومية، محدودة بفترة من الزمان» (٤).

وكان النبي في السابق يرسل لقومه خاصة، ولكنه صلى الله عليه وسلم بعث للناس عامة، قال صلى الله عليه وسلم: (وكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً وبعث إلى الناس عامةً) (٥).

فهو المبعوث للثقلين للإنس والجن،

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٧٢٦.

(٣) لا يقدح في كون النبي خاتم النبيين نزول عيسى بعده، لأن معنى ختمه للنبوة أن لا ينأ أحد بعده، وعيسى ممن نبيء قبله، وحين ينزل إنما ينزل عاملاً بشرية محمد صلى الله عليه وسلم، مصلياً إلى قبلته، كأنه بعض أمته. انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٦ بتصرف.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٧٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، ١/ ٧٤، رقم ٣٣٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ١/ ٣٧٠، رقم ٥٢١.

فأله عز وجل يقول لنبيه: «داوم على ما أمرت به من العبادة: «لنقيمك يوم القيامة مقامًا يحسدك فيه الخلائق كلهم»^(٤).

قال ابن جرير: «أكثر أهل العلم على أن المقام المحمود هو ذلك المقام الذي يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس؛ ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم»^(٥). وهذا مقام عظيم يوم القيامة يشي بعظم شأن النبي صلى الله عليه وسلم عند خالقه.

❖ قسم الله به.

قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتٍ مِّمَّهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

ففي هذه الآية «شرف لمحمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله تعالى أقسم بحياته، ولم يفعل ذلك مع بشر سواه»^(٦).

وقسم الله بحياة نبيه يدل على «تشریف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض»^(٧).

❖ لم يخاطبه الرب باسمه المجرد.

خاطب الله أنبياءه بأسمائهم المجردة،

فقال: ﴿قَالَ يٰمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتَكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

﴿وَوَدَّيْتَهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ﴾ [الصفات: ١٠٤].

قال عز وجل: ﴿قَدْ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ لِيَّ رَسُولٌ مِّنْ رَبِّكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

أي: إن النبي بعث «إلى كافة الإنس وكافة الجن»^(١).

وأن يكون النبي رسولاً للعالمين، فهذا يدل على علو مقامه عند ربه «وهو مقام لا يطاول، ومنزلة لا تنال، قد انفرد بها صلى الله عليه وسلم من بين رسل الله وأنبيائه جميعاً، فهو رسول الإنسانية كلها، والشمس التي تملأ آفاقها، وتدخل كل مكان فيها»^(٢).

❖ صاحب المقام المحمود.

وهذا مقام عظيم أشار إليه القرآن بقوله:

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ فَتَنَّاكَ بِهِ ذَلِيلًا لِّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَنَّ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وكلمة ﴿عَسَىٰ﴾ في كلام العرب تفيد التوقع، أما في كلام الله فإنها تفيد الوجوب والقطع، قال الإمام الرازي: «اتفق المفسرون على أن كلمة (عسى) من الله واجبة؛ لأن لفظة (عسى) تفيد الإطماع، ومن أطمع إنساناً في شيء ثم حرمه كان عاراً، والله تعالى أكرم من أن يطمع أحداً في شيء، ثم لا يعطيه ذلك»^(٣).

(١) الكشاف، الزمخشري ١٦٦/٢.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٨١٢/١١.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٨٧/٢١ بحذف يسير.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٠٣/٥.

(٥) جامع البيان، الطبري ٥٢٦/١٧ بتصرف.

(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/٣٦٩.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥٤٢/٤.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَلْعَبُ سِئَةً بِإِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ
إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ
اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥].
﴿قِيلَ يَتَنَبَّأُ أَهْلَ بَيْتِهِ لِسَانِهِ مِنَّا وَبُرَكَتٍ
عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨].

ولكن لم يناد الله عز وجل نبيه باسمه
المجرد أبداً، وما ناداه إلا بـ ﴿يَتَنَبَّأُ أَرْسُولًا﴾
[المائدة: ٦٧].

﴿يَتَنَبَّأُ النَّبِيُّ﴾ [الطلاق: ١].

فكون النبي لا يخاطب باسمه المجرد،
فهذا - لا شك - يشير «إلى المحبة والقرب
من ربه، الذي يخلع عليه ما يخلع من
أوصاف التكريم، ويناديه بها، حتى لكانها
علم عليه وحده»^(١).

﴿الثناء عليه بجميع خلقه.

إن الله عز وجل أثنى على أنبيائه كثيراً،
ولكنه كان يمدحهم ومدحهم ببعض
أخلاقهم، فقال عن إبراهيم عليه السلام:
﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٥٧].

ووصف موسى عليه السلام بأنه ﴿كَانَ
مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١].

وأثنى على إسماعيل بأنه ﴿كَانَ صَادِقًا
الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

ولكنه لما أثنى على محمد صلى الله
عليه وسلم أثنى عليه بجميع خلقه، فقال:

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب
١٤/١٠٠٢.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٌ﴾ [القلم: ٤].

وتأمل كيف أنه عبر بـ(على) التي
هي «للاستعلاء المجازي، المراد به
التمكن»^(٢).

وهذا يشعر بمدى تمكن النبي ورسوخه
في كل خلق كريم، «وحسب رسول الله
شرفاً وعزاً بهذا الوصف الكريم من الله
تعالى حسبه بهذا، حيث توجه ربه عز وجل
بتاج الكمال كله؛ إذ ليس بعد حسن الخلق
حلية تتحلى بها النفوس، أو تاج تتوج به
الرؤوس»^(٣).

﴿صلاة الله وملائكته عليه.

وهذه وحدها مزية عظيمة جليلة، تدل
على قدر النبي عليه الصلاة والسلام عند
خالقه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ
عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ
وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وصلاة الله على النبي تعني «ذكره بالثناء
في الملأ الأعلى، وصلاة ملائكته دعائهم
له عند الله تعالى»^(٤).

وهذه الآية «شرف الله بها رسوله صلى
الله عليه وسلم حياته وموته، وذكر منزلته

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/٦٣.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب
١٥/١٠٨١-١٠٨٢.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٨٧٩.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهذه الآية تقطع بوجود التفاضل بين الأنبياء والرسل، ولكن هناك أحاديث ثابتة تنهى عن التفضيل، ومن ذلك قوله: (لا تخيروني على موسى) (٤)، و(لا تفضلوا بين أنبياء الله) (٥) أي: لا تقولوا: فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان؛ ولكن هذه الأحاديث لا تعارض بينها وبين الآية.

قال الإمام القرطبي: يمكن الجمع بين الآية والأحاديث من وجوه:

- أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالتفضيل، وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، وأن القرآن ناسخ لل منع من التفضيل.
- أو أن قوله هذا من باب الهضم والتواضع.
- أو أن المراد النهي عن الخوض في ذلك؛ لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدال، والجدال قد يؤدي إلى أن يذكر بعضهم بما لا ينبغي أن يذكر به،

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، ٣/ ١٢٠، رقم ٢٤١١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإن يونس لمن المرسلين)، ٤/ ١٥٩، رقم ٣٤١٤.

منه» (١). فيا لها من منزلة كريمة. * اختصاصه بمعجزة القرآن.

الأنبياء السابقون آتاهم الله عز وجل عددًا من المعجزات، ولكنها كانت مخصوصة بزمنهم، وموقوتة بحياتهم، ولكن المولى تبارك وتعالى اختص حبيبه ومصطفاه بمعجزته الكبرى، والتي ستبقى خالدة على امتداد الزمان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

وهنا يمتن الحق سبحانه على رسوله «بأنه يكفيه أن أنزل عليه القرآن الكتاب المعجزة، والمنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، فالقرآن يضم كمالات الحق التي لا تنتهي» (٢).

إن معجزة القرآن معجزة لها خصوصيتها وتفردا عن كل ما تقدمها من معجزات، فهي معجزة «مفتوحة للأجيال، وليست كالحوارق المادية التي تنقضي في جيل واحد، ولا يتأثر بها إلا الذين يرونها من ذلك الجيل» (٣). فأن يختص بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم فهذه - لا شك - مزية عظيمة.

النصوص التي تنهى عن التفضيل بين الأنبياء:

- (١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٣٢.
- (٢) تفسير الشعراوي ١٣/ ٧٧٦١.
- (٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٧٠.

شروط النبوة

لمرتبة النبوة شروط تتناولها في النقاط الآتية:

أولاً: الصدق:

لما كانت النبوة هي أداء رسالة، وتبليغ شريعة، وتوجيه للناس نحو الخير، كان من أهم شروط هذه الوظيفة العظيمة الصدق؛ لأن النبي مبلغ عن الله، أمين على وحيه، والكذب في حقه عظيم؛ لأنه كذب على الله، واقتراء عليه، وتضليل للناس: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

ثم إن النبي قدوة للناس، وأ نموذج حي لتعاليم الله في الأرض؛ لذا اشترط فيه أن يكون صادقاً فيما يقوله أو يبلغه حتى يهتدي الناس به.

لذا كان الصدق من أخص صفات الأنبياء، ومن أهم الشروط التي جعلها الله فيمن اصطفاه لهذا المقام الكريم، ومن جعل القرآن نصب عينيه بانتهام له أمارات صدقهم في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

فهذا موسى عليه السلام يبين التزامه بالصدق خلقاً ومقاماً وحالاً لا يتجاوزته،

فيقول: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

وقد يؤدي إلى قلة احترامهم، والعصية المقيتة لبعضهم.

ثم قال: وأحسن من هذا القول من قال: إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة، لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والمعجزات، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها؛ ولذلك فهم رسل وأولو عزم، ومنهم من كلمه الله، فالقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل، وأعطى من الوسائل؛ وبذلك نكون قد جمعنا بين الآية والأحاديث من غير نسخ^(١).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٦١-٢٦٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/٦٧١، فتح الباري، ابن حجر ٤٤٦/٦.

البناء ينبع عن ذلك، يقال: رجل خمير وسكير للمولع بهذه الأفعال^(٥). فالصديق: كثير الصدق.

وبذات الوصف ذكر الله نبيه إدريس أيضاً، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

وجاء في آخر سورة المائدة قول عيسى عليه السلام لربه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

وهو واضح جداً في التزام عيسى عليه السلام بما أمره الله به فقط، لم يزد عليه شيئاً، ولم ينقص منه شيئاً، وإنما هو الصدق في التبليغ، والامثال في الأداء.

وكذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب - قبل إسلامه - عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم وقال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فرد عليه: ما جربنا عليه كذباً قط^(٦). وهذه وهذا النص يظهر أنها صفة أصيلة في الرسل حتى قبل مبعتهم.

ولقد بين سبحانه وعيد من كذب على الله من أنبيائه أو تكفَّروا عليه ما لم يأمر به،

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/٥٤٢.

(٦) انظر: تفصيل القصة في صحيح البخاري في بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ٨/١، رقم ٧، وصحيح مسلم، كتاب المغازي، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، رقم ١٧٧٣.

أي: «جدير بأن لا أقول على الله إلا الحق، وحرِّيُّ بي أن أنترمه»^(١).

والمعنى: «أن الرسول لا يقول إلا الحق، فصار نظم الكلام كأنه قال: أنا رسول الله، ورسول الله لا يقول إلا الحق»^(٢).

فرسول الله خليق بألا يقول على الله إلا الحق والصدق.

وأثنى الله على إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

ففي هذه الآية «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكر يا محمد في الكتاب إسماعيل بن إبراهيم، فاقصص خبره إنه كان لا يكذب وعده، ولا يخلف، ولكنه كان إذا وعد ربه أو عبداً من عباده وعداً وقي به»^(٣).

وبالصدق الكثير وصف الله نبيه إبراهيم عليه السلام فقال سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

«كان من أهل الصدق في حديثه وأخباره ومواعيده لا يكذب»^(٤).

وصدِّيقٌ لفظ فيه «مبالغة في كونه صادقاً، وهو الذي يكون عادته الصدق؛ لأن هذا

(١) التفسير الميسر ص ١٦٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤ / ٣٢٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٨ / ٢١١.

(٤) المصدر السابق ١٨ / ٢٠٢.

سبقت، فلا يكون الكاذب أمينًا، كما أن الخائن يستحيل أن يكون صادقًا؛ لذا يلزم أن يكون الصادق أمينًا والأمين صادقًا، ومن ثم كانت هذه من الصفات الواجب توافرها في الأنبياء.

وأن يكون النبي أمينًا، فهذا يعني أنه «يلبغ أوامر ربه ونواهيه إلى العباد دون زيادة أو نقص، كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنُوا بِاللَّهِ حَسِبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]»^(٦).

والأنبياء جميعًا مؤتمنون على الوحي، يلبغون أوامر الله كما أنزلها إليهم، ولا يمكن لهم أن تجري عليهم الخيانة أبدًا «فهل يليق بنبي أن يكتم أمانته، فلا ينصح الأمة، ولا يبلغ رسالة الله»^(٧).

وهذا تجده واضحًا فيما جاء على لسان أغلب الرسل في القرآن الكريم، فكل واحد منهم قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧].

فها هو نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧-١٠٨].

وتأمل كيف أنه استخدم حرف التوكيد ﴿إِنِّي﴾ مع أن أحدًا لم ينكر عليه أمانته «لأنه توقع حدوث الإنكار، فاستدل عليهم

(٦) النبوة والأنبياء، الصابوني ص ٤٤-٤٥.

(٧) المصدر السابق.

فقال في وعيد شديد: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِ﴾^(٨) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ^(٩) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ^(١٠) فَمَا يَنْكُرُونَ أَعِدَّةَ حُنَازِينٍ^(١١) [الحاقة: ٤٤-٤٧].

والتَّقْوُلُ: «أن يقول الإنسان عن آخر أنه قال شيئًا لم يقله»^(١٢).

و﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ أي: «بالقوة والقدرة، أي: لأخذناه بالقوة»^(١٣).

والوتين: «نياط القلب، وهو حبل الوريد؛ إذا قطع مات صاحبه»^(١٤).

والمعنى: «ولو ادعى علينا شيئًا لم نقله لقتلناه صبرًا»^(١٥)، كما يفعل الملوك بمن يكذب عليهم معاجلة بالسخط والانتقام، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول. وهو أن يؤخذ بيده، وتضرب رقبتة»^(١٦).

وما دامت هذه العقوبة لم تقع بأحد منهم، فهذا يبين أنهم كانوا صادقين فيما بلغوه عن الله تعالى، وأن أحدًا منهم لم يفتروا على الله كذبًا.

ثانيًا: الأمانة:

وهذه صفة قرينة لصفة الصدق التي

- (١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣٦٢/٥.
- (٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٧٥/١٨.
- (٣) الكشاف، الزمخشري ٦٠٧/٤.
- (٤) يقال للرجل يقدم فتضرب عنقه: قتل صبرًا، يعني أنه أمسك على الموت.
- انظر: تهذيب اللغة ١٢/١٢١.
- (٥) الكشاف، الزمخشري ٦٠٧/٤.

﴿الْمَبِيتِ﴾ [العنكبوت: ١٨].

نماذج عملية من أمانة النبي صلى الله عليه وسلم:

من صور الأمانة النبوية ما جاء ذكره في القرآن من عتابه تعالى لنبيه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْصَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (لو كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتن هذه الآية) (٤).

ولكنكم أيضاً عتاب الله له في قوله: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ سَرِيٌّ حَتَّى يُخْبَرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الذَّنْبِ وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

وفي قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَخْبَرَ﴾ [عبس: ١-٢].

فعدم كتمانها لشيء يدل على شدة أمانته. وهكذا يظهر لنا كيف أن الأمانة من الشروط التي يجب توافرها في الرسل والأنبياء «لتظل النفس مطمئنة إلى سلامة الوحي، وإلى كل ما جاء به النبي إنما هو أنه من عند الله، وصدق الله إذ يقول عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ

بتجربة أمانته قبل تبليغ الرسالة» (١)؛ لأنها دليل الصدق، فالأمانة «تقتضي ألا يكذب على الله، فيدعي عليه الرسالة وهو لم يرسله، وتقتضي الأمانة فيما يخبرهم، ومع الأمانة الرعاية والمحبة والإخلاص لهم، والبر بهم» (٢).

وها هو صالح عليه السلام يقول لقومه أيضاً: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٤٣-١٤٤].

وكذا قالها لوط وهود وشعيب وغيرهم. وأن تكون هذه مقالة الأنبياء لأقوامهم، فهذا يبين أن الله «لا يبعث الرسول إلا إذا كان معروفاً بالأمانة، وحسن الخلق قبل الرسالة» (٣) إذ لو كان الرسول خائناً «لغير في الشرائع الإلهية، ولأفسد في الأحكام التي يتلقاها عن الله تعالى، فيضيع بذلك الغرض من رسالته، وهو الصلاح والعمل بأوامر الله -تعالى وحده-، والله تعالى لا يحب المفسدين، ولا يؤيد الخائنين، فكيف يؤيد من خانته وينصره ويظهره؟! فلا بد إذاً أن رسل الله تعالى قد كانوا جميعاً أمناء في تبليغ ما حملوا، ومن كمال صفة الأنبياء تبليغهم كل ما أرسلهم الله تعالى به، وأداء رسالتهم ووظيفتهم المتمثلة في ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/١٥٨.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/٥٣٧٧.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/١٦٤.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، ١/١٦٠، رقم ١٧٧.

عَنِ الْمَوْتَى ﴿٢﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿﴾ [النجم: ٤-٣] (١).

ثالثاً: التبليغ عدم الكتمان:

وهذه صفة عظيمة من صفات الرسل الكرام ويقصد بها «أن يبلغ الرسل أحكام الله، ويبلغوا الوحي الذي نزل عليهم من السماء، فلا يكتُموا شيئاً مما أوحاه الله إليهم، حتى ولو كان في تبليغه للناس إيذاء عظيم لهم، أو شر مستطير يلحقهم من الأشرار والفجار» (٢).

وقد أخبرنا تعالى أن نوحاً عليه السلام قال لقومه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرِهِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَنْقُورُوا لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٢].

فها هنا نلاحظ كيف أن نوحاً عليه السلام بعد أن نفى عن نفسه الضلالة «وصف نفسه بأربع صفات كريمة» (٣)، كانت الثانية بعد إخباره أنه رسول هي أنه مبلغ لرسالات ربه عز وجل.

(١) النبوة والأنبياء، الصابوني ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/٢٩٨.

وقد وردت هذه الصفة في أكثر من حوار للرسول مع أقوامهم.

فنبى الله صالح عليه السلام قال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُوا لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنَّ لَا تُحِبُّونَ التَّصْحِيحَ ﴿﴾ [الأعراف: ٧٩].

وكذا شعيب عليه السلام قال: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُوا لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَأَسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿﴾ [الأعراف: ٩٣].

ومما يظهر شدة وضوح هذه الصفة عند الرسل هو ما نلاحظه من بدء بعض السور بـ(قل) كسورة الجن والكافرون والفلق والناس، فهي «أمر موجه للنبي صلى الله عليه وسلم ليبلغه لأُمَّته» (٤)، فإن يقول ذلك دونما زيادة أو نقص مما يدل على شدة الحرص على البلاغ وعدم الكتمان.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿﴾ [الفلق: ١].

وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿﴾ [الناس: ١].

لقد كان بوسع النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول: «أعوذ برب الفلق، أعوذ برب الناس» دون اللفظة التي خوطب بها، ولكن تبليغه العبارات كما هي يظهر شدة الحرص على البلاغ.

(٤) النبوة والأنبياء، الصابوني ص ٤٥.

(أرأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟) قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: (فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ) فقال أبو لهب: تَبَّأُ لَكَ سَائِرِ الْيَوْمِ، أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَزَلْتِ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝﴾ [المسد: ١-٢] (٣).

وهكذا يظهر لنا أن التبليغ وعدم الكتمان من صفات الرسل.

رابعاً: العصمة:

ومن الشروط التي ذكرها الله للأنبياء العصمة؛ ولهذه العصمة في حياة الأنبياء وجوه كثيرة، منها ما يلي:

١. العصمة في التبليغ.

الشرع والعقل يلزمان بعصمة الأنبياء في التبليغ؛ لأن القول بعدم عصمة الأنبياء يفضي إلى القدح في تبليغهم الرسالة، حيث يمكن نسبة الكذب أو الخطأ أو الزيادة أو النقص في التشريع، وهذا غير ممكن في حقهم؛ لأن الله قد عصمهم من ذلك.

فهم معصومون في تحمل الوحي، وفيما يخبرون عن الله تعالى، فقد اتفقت الأمة أن الرسل معصومون في تحمل الرسالة (٤)، فلا

عن زر بن حبيش قال: (سألت أبي بن كعب عن المعوذتين؟ فقال: سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: (قيل لي فقلت) فنحن نقول كما قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) (١).

وقدم ربنا قول عائشة رضي الله عنها: (لو كان محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكنتم هذه الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]) (٢).

ومما يظهر أيضاً شدة الحرص على البلاغ، أن النبي برغم ما كان يخشى في بدايات الدعوة من المواجهات الشديدة مع أهل قريش إلا أنه ما أن أنزل الله عليه قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

حتى (صعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي -لبطون قريش- حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (الله الصمد)، ٦/١٨١، رقم ٤٩٧٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معنى قول الله عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى)، ١/١٦٠، رقم ١٧٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (وأنذر عشيرتكم الأقربين)، ١١١/٦، رقم ٤٧٧٠.

(٤) نقل الإجماع على العصمة في هذا أكثر من واحد.

ومن عصمته عصمتهم في هذا الشأن فعصمته عصمتهم من الكذب مطلقاً في أي حال من الأحوال سواء في تبليغ الرسالة، أو في غيره من أخباره وأخبارهم وأحواله وأحوالهم الدنيوية قبل البعثة وبعدها.

ويدل على هذا مبادرة الصحابة إلى تصديق الرسول في جميع أقواله، والثقة بجميع أخباره دون تردد أو توقف، بل قد أقرت قريش بصدقه عندما دعاهم في الصفا، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف: (يا صباحاه). فقالوا من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: (أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكتتم مصدقي؟) قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)^(١).

وقد قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَأْتِيَهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:

ينسون شيئاً مما أوحاه الله إليهم إلا شيئاً قد نسخ، وقد تكفل الله لرسوله بأن يقرئه فلا ينسى شيئاً مما أوحاه الله إليه، إلا شيئاً أراد الله أن ينسيه إياه.

قال تعالى: ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنسَى﴾ (٦) ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٧].

وتكفل بأن يجمعه له في صدره فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجْعَلَ فِيهِ﴾ (١١) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾ (١٧) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاقْرَأْ قُرْءَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٨].

وهم أيضاً معصومون في التبليغ، فالرسل لا يكتمون شيئاً مما أوحاه الله إليهم؛ وذلك لأن الكتمان خيانة، والرسل يستحيل أن يكونوا كذلك.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧].

ولو حدث شيء من الكتمان أو التغيير فإن عقاب الله يحل بهذا الكاتم المغير، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوِيلِ﴾ (٤٤) ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (٤٥) ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦].

ومما يدل على العصمة في التبليغ، قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٢) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (فسبح بحمد ربك واستغفره)، ١٧٩/٦، رقم ٤٩٧١، ومسلم في صحيحه، الإيمان، باب في قوله: (وأنذر عشيرتَك الأقربين)، ١/١٩٣، رقم ٢٠٨.

انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠ / ٢٩١، لوامع الأنوار البهية، السفاريني ٢ / ٣٠٤.

[٣٣] (١).

وتصدق في الحديث (٤).

ويكفيه في هذا الباب شهادة الله له بقوله:
﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّٰنَ لَخَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ [القم: ٤].
فإنه متصف بكل خلق فاضل من الصدق
والأمانة وصلة الرحم والجود وغيرها، فقد
جمع الله له خصائل الخير كلها، فلم يدع إلا
بالصادق الأمين.

قال القاضي عياض: «وأما أقواله الدنيوية
من إخباره عن أحواله وأحوال غيره، وما
يفعله أو فعله، فقد قدمنا أن الخلف فيها
ممتنع عليه في كل حال وعلى أي وجه،
من عمد أو سهو أو صحة أو مرض أو رضا
أو غضب، وأنه معصوم منه صلى الله عليه
وسلم» (٥).

وهذا الحكم فيما طريقه الخبر
المحض مما يدخله الصدق والكذب، فأما
المعارض الموهوم ظاهرها خلاف باطنها
فجائز ورودها منه في الأمور الدنيوية، لا
سيما لقصد المصلحة كتورثته عن وجه
مغازيه؛ لثلا يأخذ العدو حذره، وكممازحته
ومداعبته لبعض أصحابه؛ لكي يطيب
قلوبهم، ويدخل المحبة والمسرة إلى
نفوسهم.

ومن هذا قوله لأحد أصحابه: (إني
حاملك على ولد الناقة). فقال: يا رسول

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک، ٤/١٦٣، رقم
٤٨٣٠.

(٥) الشفا ٢/١٨٧.

وكذلك حين سأل الأحنس بن شريق
أبا جهل: «يا أبا الحكم أخبرني عن محمد
أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من
قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا!
فقال أبو جهل: ويحك، والله إن محمداً
لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا
ذهب بنو قصي باللواء والحجابه والسقاية
والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟» (٢).

ومما يدل على ذلك قول أبي سفيان
لهرقل عندما سأله عن النبي صلى الله
عليه وسلم وكان مما سأل عنه: فهل كتتم
تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت:
لا، فقال هرقل: لم يكن ليذر الكذب على
الناس ويكذب على الله (٣). وقوله لخديجة
بعد أن لقيه جبريل في حراء: (قد خشيت
على نفسي). فقالت له: كلا، أبشر، فوالله
لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير
القرآن، باب ومن سورة الأنعام، ٥/٢٦١،
رقم ٣٠٦٤.

وضعه الألباني في ضعيف الترمذي
ص ٣٧٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/٣٣٣، تفسير القرآن
العظيم، ابن كثير ٣/٢٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي، ١/٨،
رقم ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد
والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل، ٩/٢٣٥،
رقم ٣٣٢٢.

الله، ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وهل تلد الإبل إلا النوق؟) (١).

أما النسيان في غير البلاغ وفي غير أمور التشريع فهي من الأغراض البشرية الجبلية التي تجوز على الأنبياء ولا تنافي العصمة في التحمل والتبليغ، ومن ذلك:

- نسيان آدم وجحوده، كما قال عليه الصلاة والسلام: (لما خلق الله آدم عليه السلام مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصاً من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له: داود، فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة، فلما قضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحده آدم فوجدت ذريته،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في المزاح، ٣٥٧/٤، رقم ١٩٩١.

قال الترمذي: حديث صحيح غريب. وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة رقم ٤٨٨٦.

ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطى آدم فخطت ذريته) (٢).

وكما وقع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في حديث ذي اليمين الذي رواه البخاري ومسلم حيث سلم النبي صلى الله عليه وسلم من ركعتين في صلاة الظهر (٣).

وقد صرح الرسول صلى الله عليه وسلم بطروء النسيان عليه كعادة البشر، ففي حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ولكن إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني) (٤)، قال هذا بعد نسيانه في إحدى الصلوات.

أما حديث: (إني لا أنسى، ولكن أنسى لأسن) (٥) فلا يعارض به الحديث السابق؛

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة الأعراف، ٢٦٧/٥، رقم ٣٠٧٦.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب إذا سلم في ركعتين، ٦٨/٢، رقم ١٢٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، ٤٠٤/١، رقم ٥٧٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، ٨٩/١، رقم ٤٠١، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، ٤٠٤/١، رقم ٥٧٣.

(٥) موطأ مالك ٣٠٢/١.

رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك»^(٢).

يقول أبو بكر الجصاص: «قد دل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعَصَمُكَ﴾ على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ كان من أخبار الغيوب التي وجد مخبرها على ما أخبر به؛ لأنه لم يصل إليه أحد بقتل ولا قهر ولا أسر مع كثرة أعدائه»^(٣).

فالمراد إذا عصمة النبي «من القتل أو الإهلاك»^(٤)؛ لأن ذلك هو الذي كان يهم النبي صلى الله عليه وسلم، «إذ لو حصل ذلك لتعطل الهدى الذي كان يحبه النبي للناس؛ إذ كان حريصاً على هدايتهم»^(٥).

وأما ما هو سوى ذلك من الإيذاء والضرر فذلك مما نال الرسول «ليكون ممن أؤذي في الله، فقد رماه المشركون بالحجارة حتى أدموه، وشج وجهه»^(٦).

ومما يؤيد ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه أن امرأة يهودية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

لأن هذا الحديث كما يقول ابن حجر: «لا أصل له، فإنه من بلاغات مالك التي لم توجد موصولة بعد البحث الشديد»^(١).

وخلاصة القول في هذه المسألة: أن من الأمور الجائزة على الأنبياء السهو والنسيان فيما ليس طريقه البلاغ مطلقاً، وفيما طريقه البلاغ بشرطين:

الأول: أن ذلك يقع منه بعد تبليغه لا قبل التبليغ.

الثاني: أنه لا يستمر على نسيانه، بل يحصل له التذكر إما بنفسه وإما بغيره.

وفائدة جواز السهو والنسيان في حقه صلى الله عليه وسلم بيان الحكم الشرعي فيما وقع فيه النسيان إذا وقع مثله لغيره.

العصمة من تسلط الناس عليهم وتسلط السحرة:

وهذا النوع من العصمة قد وعد الله به أنبياءه ورسله.

٢. العصمة من تسلط الناس.

ونعني بهذا عصمتهم من تسلط الناس عليهم بالقتل.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ففي هذه الآية يقول الله لنبية: «بلغ أنت

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥١.

(٣) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٥٦٢.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ٢٢٥.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٦٣.

(٦) المصدر السابق.

(١) فتح الباري ٤/ ٢٤٩.

كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾

[النمل: ٤٨-٥١].

وكذلك نجى الله عيسى عليه السلام من اليهود، ومنعهم من قتله، ورفع تعالى إليه، كما قال عز وجل: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وهكذا يظهر لنا كيف أن الله يعصم رسله، ويمنعهم من تسلط الناس عليهم (١).

٣. العصمة من تسلط السحرة.

وقبل أن نوضح هذا نحب أن نوضح مذهب أهل السنة في مسألة السحر وحقائقه: ذهب أهل السنة أن للسحر حقيقة وأثراً ثابتاً بالكتاب والسنة، قال النووي: «مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة» (٢).

وقال القرطبي رحمه الله: «ذهب أهل

٤. العصمة من تسلط السحرة عليهم.

وقد عصم الله رسله وأتبياءه من أن تتسلط عليهم السحرة فتلاعب بهم، فيكون في ذلك ما يكون من إغراض الناس عنهم، وتشككهم في حقيقة وحيهم، وما يبلغونه عن رب العزة.

قال الليث: كتب إلي هشام أنه سمعه ووعاه عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: (سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا، ثم قال: (أشعرت أن الله أفناني فيما فيه شفائي، أتاني رجلان: فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوبٌ، قال: ومن طبه؟ قال ليبيد بن الأعصم، قال: في ماذا؟ قال: في مشطٍ ومشاقةٍ، وجف طلعةٍ ذكرٍ، قال فأين

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٤.

(٤) المصدر السابق ٢/ ٤٦.

(٥) سيأتي ذكر الحديث.

(٦) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٢٢٧.

(١) لا يعكر على هذا قتل بني إسرائيل لبعض الأنبياء، فالعبرة بالأغلب.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي ١٤/ ١٧٤.

أمر دنياه التي لم يبعث بسببها، ولا فضل من أجلها، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له، ثم ينجلي عنه كما كان»^(٣).

ووقوع السحر للأنبياء لا يتعارض أبداً مع حماية الله لهم «فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أودوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا، وتأسوا بهم، ولتمتلى صاع الكفار، فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل، والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم، فيعجل تطهير الأرض منهم، فهذا من بعض حكيمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة، والنعمة السابغة لا إله غيره، ولا رب سواه»^(٤).

وهكذا يظهر لنا عصمة الله لرسله وحمايته لهم من تسلط الناس والسحرة عليهم.

٥. العصمة من الذنوب.

الذنوب منها صغائر وكبائر، وفيما يلي عرض لعصمة الأنبياء في كل منهما:

(٣) الشفا، القاضي عياض ٢/٤١٢.

(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/٢٢٦.

هو؟ قال: في بئر ذروان) فخرج إليها النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: (نخلها كأنه رؤوس الشياطين). فقلت: استخرجته؟ فقال: (لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شراً) ثم دفنت البئر»^(١).

فها هنا يظهر كيف أن الله عصم نبيه من تسلط السحرة عليه، وكيف أن السحر الذي أصيب به صلى الله عليه وسلم إنما كان متسلطاً على جسده وظواهر جوارحه فقط، لا على عقله وقلبه واعتقاده، فمعاناته من آثاره كمعاناته من آثار أي مرض من الأمراض التي يتعرض لها الجسم البشري لأي سبب كان، وقد سبق أن عصمة الرسول صلى الله عليه وسلم لا تستلزم سلامته من الأمراض والأعراض البشرية المختلفة.

قال القاضي عياض: «وأما ما ورد من أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله، فليس في هذا ما يدخل عليه داخله في شيء من تبليغه أو شريعته، أو يقدح في صدقه؛ لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا»^(٢).

وإنما هذا فيما يجوز طروؤه عليه في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، ٤/١٢٢، رقم ٣٢٦٨.

(٢) أي: مما يدخل أي داخله نقص في تبليغ الشريعة.

أَوَّلًا: العصمة من الكبائر:
الرسول معصومون من الكبائر باتفاق^(١).
ثانيًا: العصمة من الصغائر:
ذهب أكثر علماء الإسلام إلى أن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر.
يقول ابن تيمية: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الأمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضًا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول»^(٢).

ليقول ابن تيمية: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الأمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضًا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول»^(٢).

وللعلماء عدد كبير من الأدلة على ذلك منها ما يلي:
* معصية آدم بأكله من الشجرة التي نهى عنها.
وهذه معصية لآدم عليه السلام صرح بها القرآن، فقال تعالى: ﴿وَإِذ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿٣١﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿٣٢﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجْمُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ﴿٣٣﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿٣٤﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ

فوقله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾^(٣) يوضح «تعمد آدم مخالفة نهي الله تعالى إياه عن الأكل من تلك الشجرة»^(٤).

* تسرع داود عليه السلام في الحكم.
أخبر القرآن عن أن داود عليه السلام أتاه خصمان، ولكنه تسرع في الحكم قبل سماع حجة الخصم الآخر، فسارع إلى التوبة والاستغفار ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكَ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ إِنَّ كَيْدَ بَنِي الْخَطَالَةِ يَكُونُ بِبَعْضِ آلَاءِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَفَرَقْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَنَآبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص ٢٤-٢٥].

* خروج يونس عليه السلام من قومه بدون إذن ربه.
وهذا مما حدثنا القرآن عنه، فقال: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].
أي: أنه ظن «أن الله لن يضيق عليه ويؤاخذ به هذه المخالفة»^(٤).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٠٨/١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٣١٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/٣٢٧.

(٤) التفسير الميسر ص ٣٢٩.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٠٨/١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/٣١٩.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/٣٢٧.

(٤) التفسير الميسر ص ٣٢٩.

الاختلاط بالناس وملاقاتهم؛ ولذا كانوا على أكمل الصور وأحسنها، وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى عليه السلام بقوله: (ليلة أسري بي رأيت موسى وإذا هو رجلٌ ضربٌ رجلٌ^(٣))، كأنه من رجال شنوءة^(٤)^(٥)، وكذلك وصف عيسى عليه السلام بأنه (رجلٌ ربعةٌ^(٦) أحمر، كأنما خرج من ديماس)^(٧)^(٨).

وقد جاء وصف الرسول صلى الله عليه وسلم في كتب السنة والسيرة فلم يرد فيها شيء مما ينفر، فقد كان سوي الخلق، حسن الصورة، بأكمل ما يكون^(٩).

(٣) أي: لم يكن شديد الجعودة ولا شديد السبوتة، بل بينهما.

انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/٢٠٣.

(٤) قبيلة من اليمن.

انظر: لسان العرب ابن منظور ١/١٠٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وهل أتاك حديث موسى)، ٤/١٥٢، رقم ٣٣٩٤ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، ١/١٥١، رقم ١٦٥.

(٦) بين الطويل والقصير.

انظر: النهاية، ابن الأثير ٢/١٩٠.

(٧) أي: كأنما خرج من حمام.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وهل أتاك حديث موسى)، ٤/١٥٢، رقم ٣٣٩٤.

(٩) انظر: وصف سيدنا أنس له في البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله

وهذا يقتضي أنه «خرج خروجًا غير مأذون له فيه من الله»^(١).

وكذلك ذكر القرآن عتاب الرب جل جلاله لمحمد عليه الصلاة والسلام في أمور، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَحْمَةٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ بَنِي مَرْصَاتٍ أَرْزِقُكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحرير: ١].

وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَن جَاءَهُ الْأَخْبَىٰ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّىٰ﴾ [عبس: ١-٣].

وهكذا يظهر لنا جواز وقوع الصغائر من الأنبياء والرسول، وهذا لا شك لا يزري أبدًا بمناصبهم، ولا يحط من أقدارهم، ولا يقدح في رتبهم، فهم لا يصرون على معصية، ويبادرون إلى التوبة والاستغفار، وهم بعد التوبة أكمل منهم قبلها.

٦. العصمة من الآفات والأمراض المنفرة. وهذه من خصائص الرسل الكرام، فإنه لا يمكن أن تصيبهم الأمراض والآفات التي تجعل الناس ينفرون من مجالستهم والاجتماع بهم، فهم وإن كانوا بشرًا «تصيبهم العوارض التي تصيب البشر إلا أن الله عز وجل قد صانهم من العيوب المنفرة، وسلمهم من الأمراض الشائنة التي تجعل النفوس تنفر منهم»^(٢).

وذلك لأن وظيفة الرسل تقوم على

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/١٣١.

(٢) النبوة والأنبياء، الصابوني ص ٥٠.

وكون الأنبياء على غاية الكمال في خلقتهم فهذا لا يمنع أبداً من أنهم يمرضون ويصحون، ويشعرون بما يشعر به البشر من أوجاع عارضة كالصداع والحمى.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك! قال: (إنا كذلك يضعف لنا البلاء، ويضعف لنا الأجر) قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: (الأنبياء) قلت: يا رسول الله ثم من؟ قال: (ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد أحدهم إلا العبادة يحوبها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء)^(٤).

وهكذا يظهر لنا كيف أن الأنبياء مبرؤون ومعصومون من الأمراض المنفرة، وهذا لا يمنع تعرضهم للأمراض و«لكن بمرض غير منفر»^(٥).

خامساً: الذكورة:

الذكورة من شروط الأنبياء والمرسلين، فلا يكون النبي إلا رجلاً، وقد أشار القرآن

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ١٣٣٤/٢، رقم ٤٠٢٤. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢٧٥/١.

(٥) تفسير الشعراوي ٩٦١٦/١٥.

وقد أخبر القرآن أن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام قلن: ﴿حَسْبُ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

ومن هذا يظهر أن ما يذكر عن الرسل عليهم السلام أو ما ينسب إليهم من عيوب إنما هو كذب مفترى؛ لذلك أنكر الله جل جلاله على الذين آذوا موسى عليه السلام، ونسبوا إليه بعض العيوب.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكَفُّرُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى قَبْرَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وهذه الأذية المشار إليها «هي قول بني إسرائيل لموسى لما رأوا شدة حياته، وتستره عنهم: إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه آدر» أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمر به على مجالس بني إسرائيل، فأروه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به»^(١) ^(٢). وبذلك يظهر كيف أن «الأنبياء في خلقهم وخلقهم على غاية الكمال»^(٣).

عليه وسلم، ١٨٧/٤، رقم ٣٥٤٧.
(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب من اغتسل عرياناً وحده في الخلوة، ومن تستر فالتستر أفضل، ٦٤/١، رقم ٢٧٨.
(٣) فتح الباري، ابن حجر ٤٣٨/٦.

إعداد الجيوش وقيادة الجند، وكل هذا يناسب الرجال دون النساء.

٢. المرأة يطرأ عليها ما يقطعها، ويعطلها عن كثير من الوظائف والمهمات، كالحيض والحمل والولادة والنفاس، وكل هذا لا شك يمنع من القيام بأعباء الرسالة على الوجه الأكمل، والنحو الأمثل.

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة بعض النساء ومن هؤلاء أبو الحسن الأشعري، والقرطبي، وابن حزم^(٣).

وقد رد جماهير العلماء هذه الأدلة بعدد من الوجوه، منها:

- ❖ القول بنبوة كل من خاطبته الملائكة غير مسلم، ففي الحديث أن الله أرسل ملكاً لرجل يزور أخاه في الله في قرية أخرى، فسأله عن سبب زيارته له، فلما أخبره أنه يحبه في الله، أعلمه أن الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبه^(٤)، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى معروفة^(٥).
- ❖ الرسول صلى الله عليه وسلم توقف

(٣) انظر: لوامع الأنوار البهية، السفاريني ٢/٢٦٦، فتح الباري، ابن حجر ٦/٤٤٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الحب في الله، ٤/١٩٨٨، رقم ٢٥٦٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٤/١٧١، رقم ٣٤٦٤.

إلى هذا في غير ما موضع.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩].

ففي هذه الآية «يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشرية»^(١).

وهذا يدل على أن الذكورة شرط للرسالة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

فقوله: ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ يقتضي «أن ليس في النساء رسلاً، وهذا مجمع عليه»^(٢).

الحكمة من كون النبوة في الذكور: أن يكون كون الرسل ذكوراً فهذا لأسباب له حكم كثيرة، منها:

١. الرسالة كثيرة الأعباء والمهمات، وتقتضي مقابلة الناس في مختلف الأوقات، والتنقل في أماكن عدة، ومجادلة أهل العناد والتكذيب، وكذا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/٤٢٢.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/١٨.

الكمال هنا ليس كمال النبوة.

❖ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران)^(٣)، فكون السيدة فاطمة كذلك، يبطل القول بنبوة من عدا مريم كأم موسى وآسية؛ لأن فاطمة ليست بنبية جزماً، وقد نص الحديث على أنها أفضل من غيرها، فلو كانت أم موسى وآسية نبيتين لكانتا أفضل من فاطمة.

❖ وصف مريم بأنها صديقة في مقام الشفاء عليها والإخبار بفضلها. قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]. فلو كان هنا وصف أعلى من ذلك لوصفها به، ولم يأت في نص قرآني ولا في حديث نبوي صحيح فيه إخبار بنبوة واحدة من النساء^(٤).

وقد نقل عن جمهور الفقهاء أن مريم

١٨٨٦/٤، رقم ٢٤٣٠ ولفظه: (خير نساءها مريم بنت عمران، وخير نساءها خديجة بنت خويلد). قال: أبو كريب، وأشار وكيع إلى السماء والأرض.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٧٩/١٨، رقم ١١٧٥٦.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٧٧١/٢، رقم ٤١٩٠.

(٤) انظر: الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ٨٧.

في نبوة ذي القرنين مع إخبار القرآن بأن الله أوحى إليه ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتُ عَذَابٌ وَإِنَّمَا أَنْتُ نَحْنُ فِيهِمْ حَسَنًا﴾ [الكهف: ٨٦]^(١).

❖ اصطفاء الله لمريم لا يقطع بنبوتها، فالله قد صرح بأنه اصطفى غير الأنبياء: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] وكذلك اصطفى الله آل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] ومن أهما من ليس بنبي جزماً.

❖ الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به لا يلزم منه النبوة؛ لأنه يطلق لتمام الشيء، وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهائية في جميع الفضائل التي للنساء، وعلى ذلك فالكمال هنا غير كمال الأنبياء وقد ورد في بعض الأحاديث النص على أن خديجة من الكاملات^(٢) وهذا يبين أن

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، ٩٢/١، رقم ١٠٤.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٩٦٩/٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها،

مهمات النبوة

للنبوة مهمات عظيمة تتناولها في النقاط الآتية:

أولاً: الدعوة إلى التوحيد:

من أعظم مهمات الأنبياء التي كلفهم الله بها الدعوة إلى توحيد الله، وإفراجه بالعبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

[الأنبياء: ٢٥].

أي: فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة^(٣).

فهذه الآية دالة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أرسلوا به جميعاً، فهو مهمة جميع الرسل من نوح عليه السلام إلى رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فكل واحد من الأنبياء والرسل عليهم السلام جاء يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

[الأعراف: ٥٩].

فهذه هي الغاية التي بعث الأنبياء والرسل من أجلها، والشرائع كلها تدعو إلى هذه الغاية العظيمة، وهي أعظم غاية من أجلها خلق الخلق، وأوجدت الكائنات؛

ليست بنية، وذكر النووي في (الأذكار)^(١) عن إمام الحرمين أنه نقل الإجماع على أن مريم ليست نبية، وجاء عن الحسن البصري: ليس في النساء نبية ولا في الجن^(٢). وهكذا يظهر أن الذكورة شرط لتحمل الرسالة، وأن الرسل ما كانوا إلا ذكوراً.

(١) الأذكار، النووي ص ١١٩.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٧١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٢١.

ثانيًا: البشارة والندارة:

من أشرف المهمات التي كلف بها الرسل هي البشارة والندارة، وكثيرًا ما نلاحظ في الآيات أن الله يجمع بين مهمة الندارة والبشارة، فيقول: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجْمَةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وفي هذا إشارة إلى أن الجمع بينهما هو خير أنواع الحث والحض؛ وما ذلك إلا لأن «النفوس الإنسانية مطبوعة على طلب الخير لذاتها، ودفع الشر عنها، فإذا بصر الرسل النفوس بالخير العظيم الذي يحصلونه من وراء الإيمان والأعمال الصالحة؛ فإن النفوس تشتاق إلى تحصيل ذلك الخير، وعندما تبين لها الأضرار العظيمة التي تصيب الإنسان من وراء الكفر والضلال؛ فإن النفوس تهرب من هذه الأعمال»^(٢).

فالرسل إذاً مبشرون برحمة الله، وبما أعده الله لأهل الإيمان من السعادة في الدنيا، وعند الموت، وفي القبر وفي أرض الحشر، وفي دار السعداء في جنة عرضها السماوات والأرض.

وقام عليها أمر السموات والأرض، وخلقت من أجلها الجنة والنار، وبعث لأجلها رسل الله عليهم الصلاة والسلام.

والآيات الدالة على أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب لأجل أن يعبد الله وحده كثيرة جدًا، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَافَاتِ﴾ [النحل: ٣٦].

إلى غير ذلك من الآيات.

يقول سيد رحمه الله: «الواقع أن تلك القضية الكبرى هي قضية القرآن كله، وقضية القرآن المكي بصفة خاصة، فتعريف الألوهية الحققة، وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية، وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق، واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده، هذا هو الموضوع الرئيس للقرآن كله، وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها، وهذه الحقيقة الكبيرة تستحق -عند التأمل العميق- كل هذا البيان الذي هو موضوع هذا القرآن، تستحق أن يرسل الله من أجلها رسله جميعًا، وأن ينزل بها كتبه جميعًا»^(١).

(٢) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ٤٨ بتصرف.

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٥٣.

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً قَبَعَتْ
اللَّهُ النَّبِيَّتَيْنِ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال أيضًا: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ
لِيَتْلَىٰ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ﴾
[النساء: ١٦٥].

﴿وَمَا زُرِيَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

ففي هذه الآيات يظهر لنا كيف أن
«المقصود من بعثة الأنبياء أن يبشروا الخلق
على اشتغالهم بعبودية الله»^(١) يبشروا «من
أطاع الله بثمرات الطاعات من الرزق،
والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة،
وأعلى ذلك، الفوز برضوان الله والجنة»^(٢).
والبشارة هي «الإخبار بما يسر قبل أن
يقع»^(٣). ولما كان الأنبياء والرسل يأتون بما
يخالف الأهواء وتأباه النفوس فلا غرو كان
حاجتهم شديدة للبشارة، وما ذلك إلا لأنها
تهيئ السامع بما تحويه من ترغيب، فيبادر
إلى التنفيذ والامتثال بكل عزمه وطاقته.

وتأمل كيف أن الإنسان شديد الحرص
على المال ولنفسه تعلق كبير به، ولكنه
حينما تأتيه بشارة كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا
الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ. وَلَهُ أَجْرٌ
كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

حينما يسمع مثل هذه البشارة العظيمة
والتي تعده بمضاعفة الأجر وزيادته،
فلا شك أن أصابعه ستنبسط للعطاء، وسيقبل
عليه بنفس منسرحة^(٤).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه
قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي
يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ [الحديد:

١١]). (قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول
الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: (نعم
يا أبا الدحداح). قال: أرني يدك يا رسول
الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت
ربي حائطي، وله حائط فيه ستمائة نخلة،
وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو
الدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت:
لييك، قال: أخرجني فقد أقرضته ربي عز
وجل. وفي رواية أنها قالت له: ربح بيعك
يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها،
فقال صلى الله عليه وسلم: (كم من عذيق
رداح في الجنة لأبي الدحداح). وفي لفظ:
(رب نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبي
الدحداح في الجنة)^(٥).

وهكذا تفعل البشارة في القلوب؛ ولذا
كان النبي دومًا يوصي أصحابه بالتبشير؛ لأنه
أعون على جذب القلوب فعن أبي موسى
رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى

(٤) انظر: بدائع التفسير ٣/ ١٢٨ فقد ذكر في الآية
مرغبات عظيمة.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٧٠.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٦٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥.
(٣) تفسير الشعراوي ٦/ ٣٦٢٧.

الأنبياء التي كلفهم الله بها، أن يقوموا بإنذار الناس ما أعده الله من العذاب لمن خالف أمره وعصاه.

قال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿يُرْسِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

والإنذار: «هو الإعلام المقترن بتهديد وتخويف، وكل إنذار إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً»^(٣).

والنذارة من أعظم وظائف الأنبياء، وهي من مظاهر رحمة الله بخلقه؛ إذ جعل أنبيائه منذرين عقوبته لمن عصاه؛ حتى يتلافى الإنسان أسباب الهلاك والخسارة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال تعالى عن نبيه: ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ونلاحظ في هذه الآية أنه قال: ﴿تَبَارَكَ﴾ و«هو من البركة»^(٤).

ثم بين في ختام الآية أن عبده محمداً

الله عليه وسلم إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره، قال: (بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا)^(١).

والذي يتأمل في دعوات الرسل لأقوامهم يدرك حضور البشارة دوماً في ثنايا كلامهم.

فهذا نوح عليه السلام يقول لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّيَ إِنَّهُ كَانَ عَفَّارًا ۝١٠

يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِنُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وهذا هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿وَيَنْقُورُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّيَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

والنبي صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة الثانية حيث بايع الأنصار على حرب الأحمر والأسود، نلاحظ كيف أنه لما اشترط عليهم أن يمنعوه ويقاتلوا دونه، بشرهم بأن الجنة هي جزاء الوفاء^(٢).

وهكذا يظهر لنا كيف أن التبشير مهمة أصيلة من مهام الرسل.

وكذلك النذارة فهي من أعظم مهمات

وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، ١٣٥٨/٣، رقم ١٧٣٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٢/٢٣، رقم ١٤٦٥٣.

وانظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/٤٥٤.

(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٦/٣ بتصرف.

(٤) معاني القرآن، الفراء ٢/٢٦٢.

وقال الله لنيبه: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢].

وقال نوح عليه السلام: ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

فاقتصر سبحانه على الإنذار «لأن أبرز جانب في حياة الرسل هو الجانب الإنذاري، حيث كانت حياتهم جهادًا متصلًا لأهل الكفر والضلال»^(٢). والمقصود أن البشارة والندارة من أعظم مهمات الأنبياء، وأبرز جوانب حياتهم.

ثالثًا: الحكم بما أنزل الله:

الحكم بما أنزل الله ليس بالأمر الهين فهو من المقاصد العظيمة، والغايات الكبيرة التي تحتاج في سبيلها بذل الغالي والثمين والنفس والنفيس؛ وذلك لأنها تلقى معارضة شديدة من «الكبراء والطغاة وأصحاب السلطان الموروث؛ ذلك أنه سينزع عنهم رداء الألوهية الذي يدعونه، ويرد الألوهية لله خالصة، حين ينزع عنهم حق الحاكمية والتشريع والحكم بما يشرعونه هم للناس مما لم يأذن به الله، وستواجهه معارضة أصحاب المصالح المادية القائمة على

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/٨٧٧ بتصرف.

صلى الله عليه وسلم نذير، والإنذار - كما سبق - فيه تخويف، فكيف يجتمعان؟! هذا ما أجاب عنه الرازي رحمه الله بقوله: «أن الإنذار يجري مجرى تأديب الولد، وكما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر كان الإحسان إليه أكثر؛ لما أن ذلك يؤدي في المستقبل إلى المنافع العظيمة، فكذا هاهنا كلما كان الإنذار كثيرًا كان رجوع الخلق إلى الله أكثر، فكانت السعادة الأخروية أتم وأكثر»^(١). فالمقصود أن هذا الإنذار المكلف به الرسل إنما هو من رحمة الله بخلقه وعنايته بهم.

ولما كان الرسل يأتون الناس بأوامر ونواهي تكبح جماح النفس، وتروضها كان لابد لهم في ذلك من البشارة - كما مر - ولكن أيضًا يحتاجون كذلك وبشدة إلى الندارة، فبعض الناس يكفيه التبشير، وبعضهم لا يستجيب إلا بالتخويف والترهيب، من أجل ذلك كانت الندارة من صلب مهمات الرسل، حتى نجد القرآن قصر في بعض آياته مهمتهم عليه.

يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/٤٢٩.

وفرط عنايتهم بهذا الأمر.

وقال تعالى: ﴿بَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وفي هذه الآية يظهر كيف أن الله جعل داود عليه السلام خليفة، وعرفه أن مهمته هي الحكم بما أنزل الله ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: «فاحكم بينهم بالعدل وبشريعة الله التي أنزلها عليك»^(٣) وتفريع أمره بالحكم بين الناس بالحق على جعله خليفة «للدلالة على أن ذلك واجبه»^(٤). وهذا يوضح أن قضية الحكم بما أنزل الله من المهمات التي حملها الله لرسله.

وقد جاءت آيات كثيرة تأمر النبي صلوات الله وسلامه عليه بالحكم بما أنزل، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

أي: فاحكم يا محمد «بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم»^(٥) ومهمة الرسول في الحكم بما أنزل الحكم بما

الاستغلال والظلم والسحت؛ ذلك أن شريعة الله العادلة لن تبقي على مصالحهم الظالمة، وستواجهه معارضة ذوي الشهوات والأهواء والمتاع الفاجر والانحلال؛ ذلك أن دين الله سيأخذهم بالتطهر منها، وسيأخذهم بالعقوبة عليها، وستواجهه معارضة جهات شتى غير هذه وتيك وتلك ممن لا يرضون أن يسود الخير والعدل والصلاح في الأرض»^(١) فهي إذا مهمة لا يقوى عليها إلا النفوس الكبيرة، والقلوب العظيمة؛ ولذا جعلها الله من مهمات رسله وأنبيائه الكرام.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَسْتَرُوا يَتَأْتِي قَوْمًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

ففي هذه الآية يخبرنا المولى جل جلاله كيف أنه أنزل التوراة فيها هدى ونور، وكيف أنه قد «حكم بها النبيون -الذين انقادوا لحكم الله، وأقروا به- بين اليهود، ولم يخرجوا عن حكمها ولم يحرفوها»^(٢). وهذا يبين شدة التزام الرسل والأنبياء،

(٣) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٥٠.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢٤٣.

(٥) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣١٩.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٩٧.

(٢) التفسير الميسر ص ١١٥.

أنزل الله ليست لبعض الناس دون بعض، وإنما هي لعموم الناس، وتأمل كيف أنه قدم ﴿يَبَيِّنُهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].

للاعتناء ببيان تعميم الحكم لهم^(١).

ومما يدل على شدة خطورة هذه المهمة إظهار لفظ الجلالة ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

فهذا الإظهار «لثربية المهابة»^(٢) وكذا تحذير النبي من اتباع أهواء من يتحاكمون إليه، وفي هذا لاشك دلالة على أهمية هذه المهمة، وأنها لا تقبل التفريط فيها بحال.

وبعد هذه الآية مباشرة جاء التأكيد على النبي في وجوب التزامه في أحكامه بما أنزل الله مرة أخرى ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَخَذَرَهُمْ أَنْ يَفْتَسِحُوا عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وذلك لتأكيد هذا الأمر «لأن اليهود كانوا لا يكفون عن محاولتهم فتنته صلى الله عليه وسلم»^(٣).

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه! فأتوه. فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتبعناك

اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك! فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله فيهم ﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩].

إلى قوله: ﴿لَقَوْمٍ يُؤَفَّقُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]^(٤). يريد بذلك بيان أن الحكمة في إنزال هذه الآية «إقرار النبي على ما فعل، والأمر بالثبات على ما سار عليه من التزام حكم الله، وعدم الانخداع لليهود»^(٥).

وهناك نماذج عملية كثيرة ذكرها القرآن لحكم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بما أنزل الله تعالى، منها الآتي:

روى الإمام مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (مر على النبي صلى الله عليه وسلم بيهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم صلى الله عليه وسلم، فقال: (هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟) قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: (أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟) قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثر في أشرفنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على

(١) روح المعاني، الألو سي ٣/ ٣٢٠.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٤٥.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٤/ ١٨٥.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٣٩٣.

(٥) تفسير المراغي ٦/ ١٣٢.

قومه ساعة، ثم دخل علي، فإذا هو يريدني علي نفسي، قالت: فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فوائبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه). قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن، فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه، ثم سرى عنه، فقال لي: (يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك) ثم قرأ علي: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. إلى قوله: ﴿وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٤]. فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مر به فليعتق رقبة). قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق، قال: (فليصم شهرين متتابعين). قالت: فقلت: والله يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام، قال: (فليطعم ستين مسكيناً، وسقاً من تمر). قالت: فقلت:

شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه) فأمر به فرجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ أُوْتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: ٤١]. يقول: اتوا محمداً صلى الله عليه وسلم، فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].
﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار كلها^(١).

وروى الإمام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت: (في -والله- وفي أوس بن صامت أنزل الله جل جلاله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه وضجر، قالت: فدخل علي يوماً فراجعتني بشيء فغضب، فقال: أنت علي كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنا، ١٧٠٠، ١٣٢٧/٣.

والله يا رسول الله ما ذاك عنده، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإننا سنعيته بعرقٍ من تمرٍ). قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأعيته بعرقٍ آخر، قال: (قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا). قالت: ففعلت^(١).

وبذلك يظهر كيف أن الحكم بما أنزل الله من مهمات الرسل العظيمة التي قام بها الرسل والتزموها، نسأل الله أن يوفقنا لحسن التزام أحكامه.

رابعًا: الشهادة على الأمة:

من مهمات الأنبياء الجليلة والخطيرة في أن الشهادة على أممهم؛ وذلك يوم القيامة، يوم يجمع الله الأولين والآخرين في موقف عظيم مهيب، فيشهد الأنبياء والمرسلون بأنهم بلغوا أممهم رسالات الله، ويشهدوا بما كان من أممهم من إيمان وكفر، وتصديق وتكذيب.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثَمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

«وشاهد كل أمة نبيها، يشهد عليها

بتصديقها وتكذيبها»^(٢). وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩]. قال القرطبي: «هم الأنبياء شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة، ودعوهم إلى الإيمان»^(٣).

فإذا شهد الأنبياء بما بلغوا به أقوامهم، وبما كان من أقوامهم من تصديق وتكذيب؛ سقطت كل حجة للمكذبين، ويطل كل عذر، وفضحوا على رؤوس الأشهاد؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثَمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

فقوله: ﴿لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار؛ لأن اعتذارهم بعدما علم يقينًا بطلان ما هم عليه اعتذار كاذب لا يفيدهم شيئًا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وإن طلبوا أيضًا الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا لم يجابوا ولم يعتبوا، بل يبادرهم العذاب الشديد الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يروونه»^(٤).

ويقول صاحب الظلال رحمه الله: «الذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع، ولا يطلب منهم أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠٠/٤٥، رقم ٢٧٣١٩.

وحسنه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٥٧٧/٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦٤/١٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٦ بتصريف يسير.

على الناس يوم القيامة، وشهداء للرسول صلوات الله عليهم وتسليماته.

وبشهادتهم يضيق على المكذبين كل سبيل للإنكار، ويزدادون إحراجاً وتبكيّاً. وقد جاء هذا في بعض آيات القرآن الحكيم، وفي بعض الآثار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

«فمعنى ذلك: وكذلك جعلناكم أمة وسطاً عدولاً؛ لتكونوا شهداء لأنبيائي ورسلي على أممها بالبلاغ، أنها قد بلغت ما أمرت ببلاغه من رسالاتي إلى أممها، ويكون رسولي محمد صلى الله عليه وسلم شهيداً عليكم، بإيمانكم به، وبما جاءكم به من عندي»^(٣).

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبي ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمتي، فيدعى وأمتي، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون:

يسترضوا ربهم بعمل أو قول، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء، وجاء وقت الحساب والعقاب»^(١).

ولأجل هذا المعنى بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (قال لي النبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ علي) قلت: يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: (نعم). فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. قال: (حسبك الآن) فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرغان^(٢).

فالنبي -لما أودع الله في قلبه من الرحمة- يبكي؛ لأنه يعلم أن بشهادته وشهادة إخوانه من الأنبياء يهلك كل من كذب وكفر.

فكل نبي من الأنبياء شهيد على أمته، يشهد بين يدي ربه يوم القيامة بأنه بلغ قومه، وأدى رسالة ربه، فلا يجد المكذبون يومئذ مفراً ولا مهرباً.

ومن خصائص الأمة المحمدية أن الله جعلها ونبيها صلى الله عليه وسلم شهداء

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك، ١٩٦/٦، رقم ٥٠٥٠.

(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤٥-١٤٦.

نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: يقول: عدلاً ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].^(١)

«إذا قال قائل: كيف تشهد وهي لم تر؟ نقول: لكنها سمعت عن خبره أصدق من المعاينة صلى الله عليه وسلم»^(٢).

«فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة وحصلت العدالة التامة، كما في هذه الأمة فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها، فإن شك شك في فضلها وطلب مزكياً لها فهو أكمل الخلق نبينهم صلى الله عليه وسلم، فلهذا قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].^(٣)

وجاء في أكثر من آية - كما مر معنا - أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١١٢/١٨، رقم ١١٥٥٨.

وأصله في صحيحه، البخاري، كتاب تفسير القرآن، في باب قوله تعالى: (ويكون الرسول عليكم شهيداً)، ٤٤٨٧، ٢١/٦.

(٢) تفسير القرآن الكريم، سورتي الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين ١١٦/٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠.

الأنبياء يشهدون يوم القيامة على أممهم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

وكقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

ولكن هناك آية قد توهم خلاف هذا، وهي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرَّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ففي قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ما يوهم التعارض بين هذه الآية وما ذكر قبلها من الآيات الدالة على إثبات الشهادة لهم.

وقد أجاب العلماء رحمهم الله عن هذا الاستشكال بأجوبة كثيرة، فقالوا:

أولاً: لم يكن ذلك من الرسل إنكاراً أن يكونوا عالمين بما عملت أممهم، ولكنهم ذهلوا عن الجواب من هول ذلك اليوم، ثم أجابوا بعد أن ثابت إليهم عقولهم بالشهادة على أممهم، وهذا القول حكاه الطبري عن السدي والحسن ومجاهد^(٤).

ثانياً: «قيل: يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم، فيكلون الأمر إلى علمه

(٤) جامع البيان، الطبري ٢١٠/١١.

إلا بما شوفهوا به مدة حياتهم، وينقصهم ما في قلوب المشافهين من نفاق ونحوه، وما ينقصهم ما كان بعدهم من أمتهم، والله تعالى يعلم جميع ذلك على التفصيل والكمال^(٥).

وإحاطته بما منوا به منهم، وكابدوا من سوء إجابتهم، إظهارًا للتشكي واللجأ إلى ربهم في الانتقام منهم؛ وذلك أعظم على الكفرة، وأفت في أعضادهم، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم، إذا اجتمع توبيخ الله، وتشكي أنبيائه عليهم^(١).

ثالثًا: قيل: معنى قوله: ﴿مَاذَا أُجِئْتُمْ﴾

[المائدة: ١٠٩].

ماذا عملوا بعدكم؟ قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا بِكَ

أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبُ﴾ [المائدة: ١٠٩].

ويشبه هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يرد علي أقوام الحوض فيختلجون، فأقول: أمتي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)^{(٢)(٣)}.

رابعًا: قيل: معنى الآية: لا علم لنا إلا علمًا أنت أعلم به منا. وهو محكي عن ابن عباس^(٤).

وقال الطبري معلقًا: «وقول ابن عباس أصوب هذه المناحي؛ لأنه يتخرج على التسليم لله تعالى، ورد الأمر إليه، إذ قوله: ﴿مَاذَا أُجِئْتُمْ﴾ علم عندهم في جوابه

(١) الكشاف، الزمخشري ١/٦٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم وصفاته، ٤/١٧٩٤، رقم ٢٢٩٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/٣٦١ بتصرف.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/٢٥٧ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/٢٢٢.

(٥) جامع البيان، الطبري ١١/٢١١.

سنة الله في النبوة

لله تعالى سنن في اصطفاء من يصلح لمقام النبوة نتناولها فيما يلي:
أولاً: أن يكونوا من البشر:

مما اقتضته سنة الله تعالى في أنبيائه المبعوثين إلى خلقه أن يكونوا بشرًا، قال جل جلاله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].
 وقال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [فصلت: ٦].

فكل الظروف التي تحيط بنا تحيط بالرسول، وكل الضغوط يتحملونها، والبيئات يعيشونها، والملابسات يملعون بها، فلذلك حينما يتصورون على أنفسهم يكون الأنبياء حجة علينا، ولا يقنع الإنسان أن يكون النبي ملكًا، فلا بد من أن يكون من بني البشر، يشتهي كما نشتهي، ويحب كما نحب، ويغضب كما نغضب، ولكنه انتصر على نفسه وسار على منهج الله، ودعا إلى الله. فالأنبياء ما هم إلا خلق من خلق الله، اصطفاهم الله لرسالاته، وأيدهم بوحيه، ورفعهم على خلقه بهذا الاصطفاء، لكنهم بشر يأكلون ويشربون وينكحون، ويصيبهم

ما يصيب البشر من الأمراض، ويجري عليهم من أمر الموت ما يجري على البشر جميعًا.

ولما كان الأنبياء بشرًا كسائر البشر نجد أنهم كانت تعثرهم أمور من مقتضيات البشرية التي كتبها الله على بني البشر، ومن هذه الأمور:

١. أنهم يجوعون ويأكلون.

فالبشر جميعًا يجوعون ويأكلون فطرةً، وقد أخبر الله تعالى في أكثر من آية أن الأنبياء كانوا كذلك، يجوعون فيأكلون.

قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمَّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ فَتَلَوْنَا آهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧-٨].

وقال: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُفِّرُ بَعْضُهُمْ أَلْسِنَتَهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ خِزْيَانًا لِّبَعْضِكُمْ لَئِي يَكُونَ لَهُمُ الْحِسَابُ﴾ [الفرقان: ٧].

وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ يَئِسْرَةً وَاللَّهُ يَخْتَارُ﴾ [الفرقان: ٢٠].

بصيراً ﴿ [الفرقان: ٢٠].

٢. يتزوجون.

قال تعالى مبيناً أن الزواج سنة الأنبياء والمرسلين من قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد: ٣٨].

يقول الطبري في تفسير الآية: «يقول تعالى ذكره: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ يا محمد ﴿ رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ إلى أمم قد خلت من قبل أمتك، فجعلناهم بشرًا مثلك، لهم أزواج ينكحون، وذرية أنسلوهم، ولم نجعلهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، فنجعل الرسول إلى قومك من الملائكة مثلهم، ولكن أرسلنا إليهم بشرًا مثلهم، كما أرسلنا إلى من قبلهم من سائر الأمم بشرًا مثلهم»^(١).

وقال تعالى عن زكريا: ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال عن أيوب: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٤٣].

وقال الرجل الصالح لموسى: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ عَلِيٍّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٌ ﴾ [القصص: ٢٧].

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/٤٧٥-٤٧٦.

وقال الله أيضًا عن موسى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ﴾ [القصص: ٢٩].

وقال عن نبيه: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّنا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

فهذه الآيات جميعًا تبين أن الأنبياء كانوا يتزوجون وينكحون النساء كسائر البشر. ٣. يقومون بأعمال بشرية.

الأنبياء بشر، كانوا يعملون كسائر البشر، ويزاولون ما كان البشر يزاولونه من أعمال. فموسى عليه السلام يستأجره الرجل الصالح ليعمل معه فيما عنده من أعمال: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٣٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ عَلِيٍّ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَبِيبٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ سَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٦-٢٧].

وداود يصنع دروعًا لتحمي المحاربين في ساحات المعارك من وقع الأسلحة عليهم.

قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ونوح يصنع الفلك بنفسه، قال تعالى عنه: ﴿ وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [هود: ٣٧].

وبينت السنة أن ما من أحد من الأنبياء إلا ورعى الغنم، قال النبي صلى الله عليه

وسلم: (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم) فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: (نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة)^(١).

وهكذا كان الأنبياء يقومون بأعمال بشرية كسائر البشر.

٤. يتعرضون للبلاء.

فإن الأنبياء كسائر الخلق يتعرضون للبلاء، وينالهم الأذى أحياناً، بل إن أكثر الناس بلاء هم الأنبياء، قال صلى الله عليه وسلم: (إن من أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)^(٢).

وذكر القرآن الكثير من بلاءات الرسل، فيوسف عليه السلام سجن، قال تعالى عنه: ﴿فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضَعَّ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

ويعقوب عليه السلام ذهب بصره، قال تعالى عنه: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَى عَلَى يُونُسَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

وبيع ولده يوسف بعد خطفه.

وإبراهيم عليه السلام ألقى في النار

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، ٨٨/٣، رقم ٢٢٦٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٠/٤٥، رقم ٢٧٠٧٨.

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢٢٦/١، رقم ١٤٥.

المؤججة.

قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفُوهُ فِي الْغَيِّبِ﴾ [الصافات: ٩٧].

ويونس عليه السلام التقمه الحوت، فلبث في بطنه ما شاء الله له، قال تعالى عنه: ﴿فَالْقَمْعَةُ الْخُرْتُ وَهُوَ مَلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢].

وأيوب عليه السلام ابتلي بالمرض.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

ومحمد عليه السلام أخرج من أحب البلاد إليه، قال تعالى عن نبيه محمد: ﴿إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: ٤٠].

إلى غير هذا مما هو معروف ومشهور في القرآن والسنة.

٥. يموتون.

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سبحانه لنيه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال مخاطباً نبيه أيضاً: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

لكن حكمة الله شاءت أن يكون أنبياءه بشرًا، وليسوا ملائكة، وجعل لهذه الحكمة العديد من الفوائد لمن تأمل نصوص الكتاب العزيز، ومن هذه الفوائد ما يلي:

١. يسهل اتباعهم والأخذ عنهم. فمن لطف الله ورحمته بعباده أن جعل الأنبياء المبعوثين إليهم رسلاً؛ لأنه لو جعل الأنبياء ملائكة مثلاً لما تيسر للبشر أن يأخذوا عنهم العلم والإيمان، ولما تمكنوا من فهمهم ومواجهتهم لاختلاف الجنس.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله

تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً﴾

[الإسراء: ٩٥]: «يقول تعالى منبهاً على لطفه

ورحمته بعباده: إنه يبعث إليهم الرسول من

جنسهم؛ ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم

من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر

رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته،

ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾

[آل عمران: ١٦٤]؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿قُلْ

لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْشُونَ

مُطْمَئِنِّينَ﴾ [الإسراء: ٩٥].

أي: كما أنتم فيها ﴿لَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ

السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ أي: من جنسهم،

وقد مات كل الأنبياء عليهم صلوات الله وتسليماته غير أن أجسادهم لا تبلى كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١).

الحكمة من جعل الرسل من البشر: ولقد اعترض أعداء الرسل وخصومهم على كون الرسل بشرًا، وكان هذا من أعظم ما صد الناس عن الإيمان واتباع هدى الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

بل إنهم جعلوا من بشرية الرسل سبباً لتقبيح السير وراءهم أو اتباع هديهم ﴿وَلَكِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِمَّا كَفَرْتُمْ إِذَا لَحِيسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤].

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّنَا وَجِدْنَا نَبِيَّهُمْ إِنَّا إِذَا لَغِي ضَلَلْنَا وَسُعُرْنَا﴾ [القمر: ٢٤].

وقد اقترح أعداء الرسل أن يكون الرسل الذين يبعثون إليهم من الملائكة يعاينونهم ويشاهدونهم، أو على الأقل يبعث مع الرسول البشري رسولاً من الملائكة ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَزَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٨٤/٢٦، رقم ١٦١٦٢، ولفظه: (إن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء صلوات الله عليهم).

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٤٤٠/١، رقم ٢٢١٢.

ولما كنتم أنتم بشرًا، بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة»^(١).

«فمن رحمة الله عز وجل بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم؛ ليدعو بعضهم بعضًا، وليمكن بعضهم أن يتتبع ببعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]»^(٢).

٢. قدرة البشر على القيادة والتوجيه.

فمن حكم جعل الأنبياء بشرًا وليس ملائكة أن البشر أقدر على القيادة والتوجيه، وهم الأصلح ليكونوا قدوة وأسوة.

يقول سيد قطب رحمه الله في هذا: «وإنها لحكمة تبدو في رسالة واحد من البشر إلى البشر، واحد من البشر يحس بإحساسهم، ويتذوق مواجدهم، ويعاني تجاربهم، ويدرك آلامهم وآمالهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم، ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم، ويرجو في قوتهم واستعلائهم، ويسير بهم خطوة خطوة، وهو يفهم بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم؛ لأنه في النهاية واحد منهم، يرتاد بهم الطريق إلى الله بوحى

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٢١/٥ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ٣/٢٤١-٢٤٢.

من الله وعون منه على وعشاء الطريق.

وهم من جانبهم يجدون فيه القدرة الممكنة؛ لأنه بشر مثلهم، يتسامى بهم رويدًا رويدًا، ويعيش فيهم بالأخلاق والأعمال والتكاليف التي يبلغهم أن الله قد فرضها عليهم، وأرادها منهم، فيكون بشخصه ترجمة حية للعقيدة التي يحملها إليهم، وتكون حياته وحركاته وأعماله صفحة معروضة لهم، ينقلونها سطرًا سطرًا، ويحققونها معنى معنى، وهم يرونها بينهم، فتَهفوا نفوسهم إلى تقليدها؛ لأنها ممثلة في إنسان»^(٣).

٣. صعوبة رؤية الملائكة.

لقد مر بنا كيف أن الكفار اقترحوا أن يكون الرسل إليهم ملائكة؛ وذلك لأنهم لا يدركون طبيعة الملائكة، ولا يعلمون مدى المشقة والعناء الذي سيلحق بهم من جراء ذلك.

فالاتصال بالملائكة ورؤيتهم أمر ليس سهل أبدًا، فالرسول صلى الله عليه وسلم مع كونه أفضل الخلق، وهو على جانب عظيم من القوة الجسمية والنفسية عندما رأى جبريل على صورته أصابه هول عظيم^(٤)،

(٣) في ظلال القرآن ٥/٢٥٥٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ٧/١، رقم ٤، ولفظه: (بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء،

يعاني ما يعانيه البشر، وتجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، ولما كان حجة أمامنا، لو أن النبي ملك لا يشتهي، لا يتألم، لا يخاف، كيف يكون قدوة لنا؟ فلا بد من أن يكون هذا الرسول أو ذاك النبي من بني البشر، يعاني ما يعانيه البشر.

٥. أبلغ في التحدي.

من حكمة جعل الله أنبياءه بشرًا أن يكون ذلك أكثر تحديًا للناس، فمن المعروف أن الأنبياء يأتون أقوامهم بآيات ومعجزات، وأنباء من الغيب يطلعهم الله عليها أحيانًا، فلو قدر أن كان الأنبياء ملائكة لكان ذلك أقل تحديًا للناس، لكن كونهم بشرًا لهم قدرات البشر وإمكاناتهم، ثم يأتون بما يعجز البشر عن الإتيان بمثله، فهذا دليل، ولاشك على أنهم رسل الله الموحى إليهم من قبله.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف]:

[١١٠]: «فمن زعم أنني كاذب فليأت بمثلي ما جئت به، فإنني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي، عما سألتهم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذي القرنين، مما هو مطابق في نفس الأمر، لولا ما أطلعني الله عليه»^(٣).

هذا على أنه يجدر بنا أن نبين ختامًا أن الأنبياء مع طبيعتهم البشرية الخالصة

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥ / ٢٠٥.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يعاني من اتصال الوحي به شدة^(١)، ولذلك قال تعالى في الرد عليهم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان]:

[٢٢].

«ذلك أن الكفار لا يرون الملائكة إلا حين الموت أو حين نزول العذاب، فلو قدر أنهم رأوا الملائكة لكان ذلك اليوم يوم هلاكهم»^(٢).

٤. أقوى في إقامة الحجة.

إذ لو قدر أن كان الأنبياء ملائكة لأمكن للناس أن يحتجوا بعدم قدرتهم على اتباعهم، وتقليدهم لاختلاف جنسهم عن جنس الملائكة، ولقالوا هذا ملك له قدرات وطاقات تختلف عن طاقاتنا وقدراتنا، فإله عز وجل لو جعل أنبياءه ملائكة لسقطت الحجة، فلحكمة أرادها الله جعل أنبياءه ورسله من بني البشر، ولولا أن النبي بشرٌ

فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزله الله تعالى: (قم فأذنر)).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ٦/١، رقم ٢، ولفظه: (أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول).

(٢) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ٧٢.

إلا أنهم «يعدون إعدادًا خاصًا لتحمل النبوة والرسالة، ويصنعون صنعًا فريدًا ﴿وَأَصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

واعتبر في هذا بحال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كيف رعاه الله وحاطه بعنايته على الرغم من يتمه وفقره ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ ① ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ② ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦ - ٨] ③.

ثانيًا: أن يكونوا بلسان قومهم:

جرت سنة الله تعالى في خلقه ألا يبعث نبيًا ولا رسولًا إلا بلسان قومه.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].
بلسان قومه: أي: بلغتهم ④.

وهذا من تمام منة الله وفضله على عباده «أنه ما أرسل رسولًا ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به ونهوا عنه وقامت عليهم حجة الله ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن لم ينقد للهدى ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

(١) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ٧٠

بتصرف يسير.

(٢) زاد المسير ٢/ ٥٠٤.

يَشَاءُ﴾ ممن اختصه برحمته» ③.
فمن لوازم سنة الله في الأنبياء والمرسلين أن يكونوا بلسان قومهم؛ لأن المقصود من إرسالهم هداية الناس وإرشادهم إلى الحق والخير، وهذا لا يتأتى لهم على الوجه الأكمل والنحو الأفضل إلا إذا كانوا موافقين لأقوامهم في لغتهم.

«وهذه نعمة شاملة للبشر في كل رسالة، فلكي يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم؛ ليبين لهم وليفهموا عنه، فتمت الغاية من الرسالة» ④.

وهذا من تمام رحمة الله بخلقه - كما بينا - وهو كذلك من تمام الرسالة، وكما حجة الله على خلقه، ومن تأمل كتاب الله يجد أن الأنبياء والمرسلين كثيرًا ما وصفوا أو وصفت معجزاتهم أو كتبهم بالبيان والوضوح والظهور، قال تعالى في حق الكتاب: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْقُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٢١.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٨٧.

[المائدة: ١٥].

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَلْسِنَ وَاللِّسَانِ وَيُنشِئُ لِكُلِّ أُمَّةٍ لِسَانًا وَعَرَبًا وَعَرَبِيًّا وَمِمَّا تَعْتَبَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقال عن نبيه: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وقال في عصا موسى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧].

فقد جعل الله تعالى كتابه مبيّنًا، وآياته مبيّنة، ووصف نبيه بأنه مبيّن، ولا شك أن من أهم أدوات البيان اللغة، فهي أهم أدوات التواصل بين البشر؛ ولذا اقتضت سنة الله في رسله وأنبياؤه أن يكونوا بلسان قومهم؛ ليكونوا في أعلى درجات البيان.

ف«كل رسول لله جل ثناؤه أرسله إلى قوم فإنما أرسله بلسان من أرسله إليه، وكل كتاب أنزل على نبي، ورسالة أرسلها إلى أمة فإنما أنزله بلسان من أنزله أو أرسله إليه»^(١).

وإرسال الرسل بلسان أقوامهم «أبلغ في الحجة وأقطع للعدر، فربما كانوا يقولون عند اختلاف الألسنة: لا نفهم عنهم؛ إذ قالوا ذلك مع اتفاق اللغات، فقد قال قوم شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ مَا نَفَقَةٌ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١].

هذا وهو يخاطبهم بلسانهم، فكيف لو كان على خلاف ذلك؟!^(٢).

يقول ابن القيم: ف«لم يرسل الله رسولًا إلا بلسان قومه ليبين لهم، فتقوم عليهم الحجة بما فهموه من خطابه لهم»^(٣).

كما أن إرسالهم بلسان قومهم أدهى لفهم وأعون عليه؛ لذا ما أرسل رسول «إلى أمة من الأمم إلا بلغة قومه الذين أرسل إليهم، ليفهمهم ما أرسل به بسهولة ويسر»^(٤).

استشكال ودفعه:

من المعلوم أن الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد بعث إلى الخلق عامة، لكن رسالته جاءت بلسان قومه الذين بعث فيهم وهم العرب، فكان القرآن بلسان عربي مبين، وهنا قد يظن البعض أن لغبر العرب حجة أو عذرًا في ترك الاهتداء بالقرآن لأنهم لا يفهمونه؟

وقد أجاب على هذه الشبهة القاسمي رحمه الله فقال: «لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك، وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا

(٣) الصواعق المرسلّة، ابن القيم ٧٤٣/٢.

(٤) تفسير المراغي ١٣/١٢٦.

(١) جامع البيان، الطبري ١/١١.

(٢) نظم الدرر، البقاعي ١٠/٣٧٩.

فيما يأمرون به وفيما ينهون عنه؛ ولما كان الأنبياء يأتون أقوامهم بما يخالف عاداتهم، كان لزاماً أن يقيموا الأدلة والبراهين على صدق نبوتهم وبعثهم من قبل الله تعالى؛ حتى يقطعوا عن الناس الشك والريب في أمرهم، وحتى تكون هذه الأدلة والبراهين دليلاً واضحاً على صدق نبوتهم، وأيضاً خطأً فاصلاً بين النبي حقاً ومن يدعي النبوة. لهذه الأسباب وغيرها كان تأييد الله تعالى لأنبيائه بالآيات الواضحات التي تثبت لدى كل منصف صدقهم في دعوتهم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: «بالحجج والبراهين القاطعة على صحة ما يدعون إليه»^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا لِنُؤْمِنَهُمْ فَمَا نُفِئَهُمْ فَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني: «بالواضحات من الحجج على صدقهم، وأنهم لله رسل»^(٤).

فأله تعالى قد جعل «دلائل الأنبياء وأعلامهم الدالة على صدقهم كثيرة متنوعة، كما أن دلائل كذب المتنبئين كثيرة متنوعة»^(٥) وما ذلك إلا لأنه أبلغ في إقامة الحجة على الناس بأن هؤلاء الأنبياء هم

عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكد القرائح فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب؛ ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف؛ ولأنه لو نزل بالسنة الثقلين كلها مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلاً بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها، كما كلم أمته التي هو منها - يتلوه عليهم معجزاً- لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء»^{(١)(٢)}.

ثالثاً: تزويدهم بالآيات:

لما كان الأنبياء سفراء الله إلى خلقه يدعون الناس إلى الإيمان بهم وتصديقهم فيما يخبرونهم عنه، ويسألونهم طاعتهم

(١) الإلجاء: الإكراه والاضطرار، وقيل: إن الاضطرار أخص من الإلجاء، لاشتراط زوال الاختيار في الأول دون الثاني.

انظر: معجم لغة الفقهاء ص ٨٦، الفروق اللغوية ص ٦٧.

(٢) محاسن التأويل ٦/ ٢٩٨-٢٩٩.

(٣) المصدر السابق ٩/ ١٥٣.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١١٣.

(٥) الجواب الصحيح، ابن تيمية ١/ ١٢٩.

رسل الله إلى خلقه وأنهم صادقون فيما يبلغون عنه، وفيما يظهره من أمر الوحي.

والآية في اللغة هي: «العلامة، والجميع: الآي»^(١). وقوله تعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣].

قال الزجاج: «معناه: نريهم الأعلام التي تدل على التوحيد في الأفاق»^(٢).

وقد عرفت الآية في الاصطلاح بأنها: «أعلام ودلائل يؤيد بها الله -تبارك اسمه- عباده الأنبياء عليهم السلام؛ ليدل بها على صدقهم، ولا يمكن لأحد من المكلفين أن يعارضها معارضة حقيقية، أو أن يأتي بمثلها عن طريق التعلم والتدرب للوصول إلى ذلك؛ إذ هي أمور خارقة تفوق قدرة المكلفين»^(٣).

وكثيراً ما كان يطلق بعض العلماء على الآية لفظ المعجزة فيستعملها بمعنى واحد، أو يعبر عن آيات الأنبياء بالمعجزات، غير أن هذه الكلمة -المعجزة- لم يرد ذكرها لا في الكتاب ولا في السنة. يقول ابن تيمية عليه رحمة الله: «ليس في الكتاب والسنة لفظ المعجزة، وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف، وإنما فيه آيات

وبراهين»^(٤).

١. آية كل رسول.

جعل الله تعالى لكل نبي من أنبيائه ما يدل على صدقه، ويرغم الناس على الاستسلام له ولما جاء به، وقد سمي الله ما آتاه أنبياءه مما يدل على صدقهم: آية، وفي بعض المواضع: بينة، وفي البعض الآخر: برهان.

فما جاء بلفظ الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤].

أي: «دلالة ومعجزة وحجة، من الدلالات على وحدانية الرب عز وجل، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها»^(٥).

وأما ما جاء بلفظ البينة فكثير، منه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقوله: ﴿وَالْبَيِّنَاتِ﴾ «يريد بالمعجزات، وهي بينة في أنفسها»^(٦).

ومما ورد بلفظ البرهان قوله تعالى: ﴿أَسْأَلُكَ بِدَلِّكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

(١) العين، الفراهيدي ٨/ ٤٤١.

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٥٩٤/١٠.

(٣) النبوة والأنبياء بين حقائق الدين وشبهات العلمانيين، محمد حبنكة ص ١٢٤.

(٤) النبوات، ابن تيمية ١/ ٢١٥ باختصار.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٤٠.

(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٨.

وَأَضْمْتُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكُمْ
بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ [القصص: ٣٢].

ونلاحظ أن الله عز وجل أحياناً يعين لنا
آية النبي، وأحياناً لا يعينها لنا.

وما عينه الله من ذلك فكثير مشهور
كمعجزة نبي الله إبراهيم، ومعجزة نبيه
صالح، ومعجزة نبيه موسى، ومعجزة نبيه
عيسى، ومعجزة نبيه محمد صلوات الله
عليهم أجمعين.

فهؤلاء الأنبياء قد ذكر الله لنا بعض
الآيات التي أجزاها على أيديهم ونص لنا
عليها.

ومن الأنبياء من لم يعين الله لنا آيته أو
معجزته، كنبي الله هود، فإن الله ذكر أن
له بيته، لكنه لم يذكر ماذا كانت؟ ولا كيف
كانت؟ قال تعالى: ﴿وَالَّذِي عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا
قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقُورِ لَا اسْتَلْكُمْ
عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ [هود: ٥٠-٥١].

﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ
هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٥﴾ فَانْقَبُوا
اللَّهُ وَاطِيعُونَ ﴿١٣٦﴾ وَمَا اسْتَلْكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٧﴾ [الشعراء: ١٢٣-
١٢٧].

حتمًا أظهر الله لهود آية دالة على صدقه

كحال غيره من الأنبياء، كما قال تعالى:
﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ
نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ
مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهَمْ رَسُولُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٧٠﴾ [التوبة: ٧٠].

ففي هذه الآية ذكر الله قوم عاد -الذين
هم قوم هود عليه السلام من جملة الأقوام
الذين أخبر الله عنهم بقوله: ﴿أَنَّهَمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿٧٠﴾ فهذا يعني أن هودًا أتى
قومه بيينة أو معجزة، لكن الله لم ينص عليها
ولم يعينها.

وكذا الحال في شعيب عليه السلام
وقومه منصوص عليهم في الآية السابقة
أيضًا، وهم أصحاب مدين، لكن الله أيضًا
لم يعين لنا البيينة التي أتى بها قومه.

وقد قال الله عنه: ﴿وَإِنَّ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ
رَبِّكُمْ ﴿٨٥﴾ [الأعراف: ٨٥].

يقول الزمخشري: «فإن قلت: ما كانت
معجزته؟ قلت: قد وقع العلم بأنه كانت
له معجزة، لقوله: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ
مِنْ رَبِّكُمْ ﴿٨٥﴾ ولأنه لا بد لمدعي النبوة
من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلا لم تصح
دعواه، وكان متنبئًا لا نبيًا، غير أن معجزته لم
تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات

لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ
لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ ﴿١﴾ [الأنعام:
٥٠] (٢).

وقد كان من سنة الله في رسله عادة أن يظهر على أيديهم آيات من جنس ما برع فيه أقوامهم؛ ليكون أقوى في التحدي، وأظهر في الحجة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة) (٣).

يقول ابن حجر رحمه الله معلقاً: «كانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه كما كان السحر فاشياً عند فرعون، فجاءه موسى بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، لكنها تلقفت ما صنعوا ولم يقع ذلك بعينه لغيره، وكذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه؛ ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة

نبينا صلى الله عليه وسلم فيه» (١).

والمقصود أن من الأنبياء من عين الله لنا آيته التي جاء بها قومه، ونص عليها في القرآن، ومنهم لم يعين الله لنا آيته. ٢. أنواع الآيات.

«إذا استقرنا الآيات والمعجزات التي أعطها الله لرسله وأنبيائه نجدها تدرج تحت ثلاثة أمور: العلم والقدرة والغنى.

فالإخبار بالمغيبات الماضية والآتية كإخبار عيسى قومه بما يأكلونه وما يدخرونه في بيوتهم، وإخبار رسولنا صلى الله عليه وسلم بأخبار الأمم السابقة، وإخباره بالفتن وأشراط الساعة التي ستأتي في المستقبل كل ذلك من باب العلم.

وتحويل العصا أفعى، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وشق القمر وما أشبه هذا من باب القدرة.

وعصمة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من الناس، وحمايته له ممن أراد به سوءاً، ومواصلته للصيام مع عدم تأثير ذلك على حيويته ونشاطه من باب الغنى.

وهذه الأمور الثلاثة: العلم، والقدرة، والغنى، التي ترجع إليها المعجزات لا ينبغي أن تكون على وجه الكمال إلا لله تعالى،

ولذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالبراءة من دعوى هذه الأمور ﴿قُلْ لَا أَقُولُ

(٢) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ١٢٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، ١٨٢/٦، رقم ٤٩٨١.

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٢٧.

مثله، فلم يقدرُوا على ذلك»^(١).

٣. نماذج من آيات الأنبياء.

في القرآن كثير من الآيات التي تبين تأييد الله تعالى لأنبيائه بالآيات والمعجزات، وفيما يلي عرض لبعضها:

١. آية إبراهيم عليه السلام.

أيد إبراهيم عليه السلام ببعض الآيات التي بينت صدق نبوته وصحة بعثته من قبل الله، وكان من أعظم آياته صلى الله عليه وسلم ما كان من إنجاء الله له من النار التي ألقاه قومه فيها؛ وذلك بعد أن حطم إبراهيم أصنامهم إلا كبيراً لهم، فعزم قومه على إحراقه في النار العظيمة فنجاه الله منها.

قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت: ٢٤].

٢. آية صالح عليه السلام.

لما دعا صالح عليه السلام ثمود إلى عبادة الله وحده، ونبذ ما عداه كذبه قومه وقالوا له: ﴿فَأْتِ بِآيَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾

[الشعراء: ١٥٤].

فلما طلبوا منه آية تثبت صحة دعواه آتاه الله الناقة آية مبصرة بينة، شاهدة بصدق نبوته.

قال تعالى: ﴿وَأَيْنَأْنَا نُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً ﴿٥٩﴾ فَظَلَمُوا بِهَا ﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء: ٥٩].

وذكر بعض المفسرين أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم، فلما جاءهم صالح عليه السلام يعظهم طلبوا منه آية على صدق نبوته، فدعا صالح ربه فأخرج لهم الناقة من الصخرة^(٢).

٣. آية موسى عليه السلام.

تعددت الآيات التي أرسل الله بها موسى إلى بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١].

وهذه الآيات التسع هي:

العصا: وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ١٧-٢٠].

تلاؤلُ يده إذا أدخلها في جيبه ثم نزعها: وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [طه: ٢٢].

إصابة بني إسرائيل بما يلي: السنين

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩ / ٣٨٦، الكشاف، الزمخشري ٣ / ٣٢٩.

(١) فتح الباري ابن حجر ٦ / ٧-٦.

هذا ما يلي:

- ✽ يخلق من الطين كهيئة الطير، ثم ينفخ فيه فيجعله طيراً بإذن الله.
- ✽ يبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله.
- ✽ يحيي الموتى بإذن الله.

وهذه الآيات كلها يجمعها قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَكْفُرُ بِالْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

✽ إنزال المائدة من السماء.

وذلك حين طلب منه بنو إسرائيل

ذلك؛ إذ قالوا: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِثُوتُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقْتُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [١١٣] قالوا نريد أن نأكل منها ونطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا وتكون علينا من الشّهيدين﴾ [المائدة: ١١٢-١١٣].

فدعا عيسى عليه السلام ربه فأجابه ربه، وأنزل عليهم مائدة من السماء ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ

ونقص الثمرات والظوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

وقد ورد ذكر هذه الآيات في آيتين من سورة الأعراف، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقِصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

على أن أعظم الآيات التي آتاها الله موسى عليه السلام هي آية العصا التي انقلبت حية فأمن على إثرها السحرة.

قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ اأَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ﴾ [٤٣] فَأَلْقَوْا حِجَالَهُم وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّتِي فِرْعَوْنُ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [٤٤] فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَلَمَةٌ مَّا يَأْكُورُونَ﴾ [٤٥] فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهَابِينَ﴾ [٤٦] قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٤٧] رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣ - ٤٨].

وقد كانت هذه الآية على مرأى ومسمع من بني إسرائيل وفي مقام التحدي لفرعون وملته، فأظهر الله بها موسى عليهم، وخر السحرة ساجدين.

٤. آية عيسى عليه السلام.

ورد في القرآن العديد من الآيات التي أيد الله بها نبيه عيسى عليه السلام على قومه؛ لتبرهن على صدق نبوته وصحة بعثته، ومن

تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَمَآيَةَ مِئَةٍ
وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَنْتُ بِهَا
عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا
أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿المائدة: ١١٤ - ١١٥﴾

٥. آية نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم.
أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد
تعددت آيات نبوته بقدر قدره الكريم وقيمة
الرسالة المبعوث بها.
* القرآن أعظم الآيات.

القرآن الكريم كتاب عظيم أوحى به إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا
الكتاب العظيم يحمل بين دفتيه عددًا كبيرًا
من التشريعات التي تكفل للإنسانية حياة
طيبة رضية إن التزمها الناس وعملوا بها،
وقد جعل الله تعالى هذا الكتاب وحيًا
على الناس الإيمان به والعمل بما فيه، وفي
الوقت نفسه جعله آية عظيمة، فلا يحتاج
إلى آية من خارجه، فهو في نفسه آية، ولما
طلب الكفار آية على صدق ما جاء به النبي
بقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن
رَّبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

كان الجواب: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا
أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي
ذَلِكَ لَرَحْمَةٍ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾
[العنكبوت: ٥١].

«وفي هذا الرد إنكار عليهم أن يطلبوا

آيات مع هذه الآيات التي تتلى عليهم، إنها
آيات لا تغرب شمسها، ولا يخبو ضوءها
أبد الدهر»^(١).

«وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ عبارة تنبئ
عن كون القرآن آية فوق الكفاية؛ وذلك
لأن القائل إذا قال: أما يكفي للمسيء أن
لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبئ عن أن
ترك الضرب في حقه كثير، فكذلك قوله:
﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾
وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة
تقدمتها»^(٢).

فالقرآن أعظم الآيات وأظهر المعجزات
لا يحتاج إلى آية، وإنما هو الآية التي عجز
الفصحاء والبلغاء من أساطين البلاغة
والبيان عن معارضته أو مشابهته حين
تحداهم الله بقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ
مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا
شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
[البقرة: ٢٣].

ولما عجزوا عن هذا كان عجزهم دليلًا
على صدقه، وبرهانًا على حقيقة نبوته.

و«شاء الله تعالى أن تكون معجزة محمد
صلى الله عليه وسلم نمطًا مخالفًا لمعجزات
الرسل، وكان الله قادرًا على أن ينزل معجزة
حسية تذهل من يراها: ﴿إِنْ شَاءَ نَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب
٤٥٢/١١.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٦٥/٢٥.

واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب، وأما القرآن فهو باقٍ لو أنكره واحد فنقول له: فأت بآية من مثله.

الثاني: هو أن قلب العصا ثعبانًا كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد^(٢).
* الإسراء والمعراج.

من الآيات الشاهدة على صدق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الوارد ذكرها في القرآن آية الإسراء والمعراج، وإليها الإشارة في قوله تعالى: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِيٓ اَسْرٰى بِعَبْدِهٖٓ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اِلَى الْمَسْجِدِ الْاَقْصَا الَّذِي بَنٰرْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُٓ مِنْ اٰيٰتِنَا اِنَّهُٗ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيْرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّبِّيَا الَّتِي اَرٰىنَاكَ اِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

وفي هذه الرحلة أسرى الله بنبيه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به منه إلى السموات العلا، حيث رأى من آيات ربه الكبرى وإلى ذلك الإشارة في الآيات: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأٰى﴾ (١١) ﴿اَفْتَمَرْتُوْهُ عَلٰى مَا يَرٰى﴾ (١٢) ﴿وَلَقَدْ رَاَهُ نَزْلَةً اٰخَرٰى﴾ (١٣) ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهٰى﴾ (١٤) ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوٰى﴾ (١٥) ﴿اِذْ يَنْفُثُ

السَّمَآءِ اٰيَةً فَظَلَّتْ اَعْنَاقُهُمْ لَمَّا خَوَّضِعِيْنَ﴾ [الشعراء: ٤].

فلو شاء الله تعالى لأنزل من السماء آية قاهرة لا يملكون معها جدالاً ولا انصرافاً عن الإيمان، ويصور خضوعهم لهذه الآية في صورة حسية: ﴿ظَلَّتْ اَعْنَاقُهُمْ لَمَّا خَوَّضِعِيْنَ﴾ ملوية محنية، حتى لكأن هذه هيئة لهم لا تفارقهم، فهم عليها مقيمون، ولكنه تعالى شاء أن يجعل معجزة هذه الرسالة الأخيرة آية غير قاهرة، لقد جعل آيتها القرآن، منهاج حياة كاملة، معجزاً في كل ناحية، معجزاً في بنائه التعبيري، وتنسيقه الفني، معجزاً في بنائه الداخلي، وتناسق أجزائه وتكاملها، معجزاً في يسر مداخله إلى القلوب والنفوس، ولمس مفاتيحها، وفتح مغاليقها، واستجاشة مواضع التأثير والاستجابة فيها، وعلاجه لعقدتها ومشكلاتها في بساطة ويسر عجيبين، وفي تربيتها وتصريفها وفق منهجه بأيسر اللمسات، دون تعقيد ولا التواء ولا مغالطة^(١).

أيضاً «فإن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه:

أحدها: أن تلك المعجزات وجدت وما دامت، فإن قلب العصا ثعباناً مثلاً، وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر، فلو لم يكن

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٦٥/٢٥ بتصرف يسير.

(١) الرسل والرسالات، عمر الأشقر ص ١٣٢-١٣٣ باختصار.

نبوتهم وصدقهم فيما يدعون الناس إليه.

موضوعات ذات صلة:

آدم عليه السلام، إبراهيم عليه السلام، بيت النبوة، الرؤيا، عيسى عليه السلام، محمد صلى الله عليه وسلم، موسى عليه السلام، الوحي، الوراثة

السِّدْرَةَ مَا يَشْتَنِي ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿﴾ [النجم: ١١-١٨].

وأخبار الرحلة مشهورة في كتب الأحاديث.

❁ انشقاق القمر.

مما أظهره الله تعالى من الآيات العظيمة التي تبين صدق نبيه في دعواه آية «انشقاق القمر» وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ ﴿﴾ [القمر: ١-٢].

وفي هذه الآية شق الله تعالى لنبيه القمر شقين حتى رأى بعض الصحابة جبل حراء بينهما، (فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما)^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اشهدوا)^(٢).

وهكذا يتضح لنا كيف أن الله جل جلاله يؤيد رسله بالآيات الكثيرة التي تدلل على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب انشقاق القمر، ٤٩/٥، رقم ٣٨٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية، فأراهم انشقاق القمر، ٢٠٦/٤، رقم ٣٦٣٦.